الطريق لتحقيق حقيقة العبودية

الافتقار إلى الله

عناصر الموضوع	الصفحة
❖ حقيقة الفقر	2
❖ أعظم الخلق عند الله أعظمهم شهودًا لفقره	3
❖ صفات الفقير ..... 1) سلم من التعلق بالأسباب ..... * القدرات الذاتية ..... * أسباب خارجية ..... 2) سلم من منازعة الرب..... * سلم من الخواطر الرديئة..... * سلم من القنوط من رحمة الله ..... * سلم من الاعتراض على أقدار الله. ..... 3) سلم من مخاصمة الخلق..... * عامل الخلق بما يرضي الله..... * عامل الخلق بحسن الخلق..... * عامل الخلق بالعفو..... * عامل الخلق بالإحسان	5 10 16
❖ علامات الافتقار 1) غاية الحب مع غاية الذل [مقتضيات الذل التواضع وعدم الكبر] 2) تعلق القلب بالله * تعلق القلب بالله يظهر في أربعة مواضع: {عندالنوم} {عند الاستيقاظ من النوم} {في الصلاة} {وقت الشدائد} 3) مداومة الذكر والاستغفار 4) الخوف: (الخوف من الله) (الخوف من عدم قبول العمل) (الخوف من الخذلان) (الخوف من محبطات الأعمال) (الخوف من الاستدراج) (الخوف من سوء الخاتمة)	23 28 38 41
❖ الطريق لتحقيق الافتقار: 1) معرفة الله بأسمائه وصفاته 2) معرفة النفس	60
❖ وبذلك يصل العبد إلى حقيقة الافتقار	70
❖ مقت النفس في ذات الله	71
❖ وبذلك يسير العبد إلى ربه بمقتضى ما يتطلبه السير إلى الله	74

الافتقار إلى الله لب العبودية

من أخص خصائص العبودية: الافتقار المطلق إلى الله تعالى فهو حقيقة العبودية ولبها كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر/15]

- وقد نادى الله جميع الناس وأخبرهم بحالهم، ووصفهم بأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ ﴾

- **فقراء في إيجادهم** فلولا خلق الله لهم لم يوجدوا.
- **فقراء في إعدادهم** بالقوى والأعضاء والجوارح، فلولا إعداد الله إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان.
- **فقراء في إمدادهم** بالأقوات والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة.. فلولا فضل الله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الأرزاق والنعم شيء.
- **فقراء إلى الله في تربيتهم** بأنواع التربية وأجناس التدبير.
- **فقراء إليه في تعليمهم** ما لا يعلمون، وعلمهم ما يصلحهم .. فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.
- **فقراء إلى ربهم** في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.
- **فقراء إلى ربهم** في تألههم له، وحبهم له، وعبادتهم إياه، وإخلاص العبادة له.. فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.
- **فهم فقراء بالذات إلى ربهم** بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أو لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع إليه سبحانه أن يعينه على جميع أموره، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.
- **{والله هو الغنيُّ الحميدُ}**؛ أي: الذي له الغنى التامُّ من جميع الوجوه؛ فلا يحتاجُ إلى ما يحتاجُ إليه خلقُه، ولا يفتقرُ إلى شيءٍ مما يفتقرُ إليه الخلقُ، وذلك لكمال صفاتِهِ، وكونِها كلها صفاتِ

كمال ونعوتَ جلال، ومن غناه تعالى أنَّه أغنى الخلقَ في الدُّنيا والآخرة، الحميدُ في ذاته، وأسمائِهِ؛ لأنَّها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنَّها فضلٌ وإحسانٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميدُ على ما فيه، وعلى ما منّه ، وهو الحميدُ في غناه، الغنيُّ في حمده.

- **فهو سبحانه الغني** الذي له ما في السموات وما في الأرض، وغناه تام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، ومن غناه أنه أغنى الخلق كلهم في الدنيا والآخرة.
- **فهو سبحانه الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته** فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها عليا، وأفعاله كلها فضل وإحسان، وعدل وحكمة ورحمة، فهو الحميد في ذاته، الحميد في أسمائه وصفاته، الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، الحميد في غناه.

حقيقة الفقر

- **حقيقة الفقر:** أن يكون المرء بأحاسيسه ومشاعره ووجدانه مفتقرًا إلى مولاه

تبرأت من حولي وطولي وقوتي — وإني إلى مولاي في غاية الفقر
غنى المرء بالرحمن أغنى من الغنى — به يكتسي ثوب المهابة والقدر
له الفضل كل الفضل أسلمت مهجتي — إليه فمالي حين أنساه من عذر

- **فالفقر الحقيقي كما وصفه ابن القيم:(** هو دوام الافتقار إلى البارئ في كل شيء، وأن يشهد الإنسان في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وفقرًا ملحًا إلى الله وإلى لطفه وكرمه وعنايته وحفظه وتيسيره وتدبيره.
- **وإن هذا الفقر إلى الله** هو حقيقة الغنى وأصل العزة في الدنيا والآخرة، ولا يزداد به المرء إلا رفعة، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تُدرك بالحصول فيحصل لقلبه كَسْرة خاصة لا يشبهها شيء؛ بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة ولا يرغب في مثله.

وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منّ ربه عليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيرًا. فإي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه

من الطاعات لربه، ورآها ولو ساوت طاعة الثقلين من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله" .

☜ **ثم قال ابن القيم:** " فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد وأجداه عليه! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم. وأحب القلوب إلى الله سبحانه: قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الراس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله

الفقر عين الغنى بالله

فهل يكون فقيرًا: من كان الله معه، والله ناصره، والله معينه، والله حافظه، و امتلأت نفسه بجلال الله، واستغنى قلبه بذكر الله، وغردت جوارحه بمنن الله؟!

إن استغنى فبالله، وإن اتكل فعلى الله، وإن التجأ فإلى الله.

استغنى الناس بالمال واستغنى هو بالعزيز المتعال.

أعظم الخلق عند الله أعظمهم شهودًا لفقره

فأكمل الخلق: 1) أكملهم عبودية

2) وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (**يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحدٍ من خلقك**) [مسند أحمد]

☜ هذا الدعاء من أعظم الأدعية التي تتضمن تحقيق العبودية لله رب العالمين وتتضمن التوسل لله تعالى بأسمائه وصفاته وهو سبحانه الحي القيوم الرحمن الرحيم ، فالعبد يستغيث برحمة الله التي وسعت كل شيء لعله ينال منها ما يسعده في الدنيا وآخرته.

ثم يسأل الله صلاح الأمور والأحوال فيقول: (**أصلح لي شأني كله**) أي جميع أمري في بيتي وأهلي وجيراني وأصحابي وعملي ودراستي وفي نفسي وقلبي وصحتي وفي كل شيء يتعلق بي أي: أجعل يا رب الصلاح والعافية حظي ونصيبي وذلك كله فضل الله تعالى ليس باستحقاق العبد ولا بجاهه (**ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**) اعتراف بالفقر التام إلى الله والاستسلام الكامل لغناه.

ومعناه: أي لا تتركني إلى ضعفي وعجزي لحظة واحدة، بل اصحبني بالعافية دائمًا وأعنى بقوتك وقدرتك، فإن من توكل على الله كفاه ومن استعان به أعانه والعبد لا غنى به عن الله طرفة عين

* كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)

* أي إجعله ثابتًا على دينك غير مائل عن الدين القويم والصراط المستقيم.

- وذلك إشارة لشمول ذلك للعباد حتى الأنبياء ورفع توهم من يتوهم أنهم يستثنون من ذلك، وخص النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بالذكر إعلامًا بأن نفسه الزكية إذا كانت مفتقرة إلى أن تلجأ إلى الله فافتقار غيرها ممن هو دونه أحق بذلك.
- يدعو النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدعاء لعلمه صلى الله عليه وسلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئًا وأن الله سبحانه وتعالى يصرفه كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** ﴾ **[الإسراء:74]**

أي رحمة الله لك ولأصحابك مَنَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك وترفقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك وبدون هذه الرحمة وهذا المدد من الله لن تلين لأصحابك ولن يجتمعوا عليك ولن يمتثلوا أمرك.

- فضرورته صلى الله عليه وسلم إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته بربه وحسب قربه منه، ومنزلته عنده.
- ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه.
- ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**يا أيها الناس، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي إنما أنا عبد**) [رواه الطبراني اسناده حسن]

صفات الفقير

أولاً: سلم من مطالعة الأسباب والتعلق بها. ثانيًا: سلم من منازعة الرب ثالثا: سلم من مخاصمة الخلق

أولا: الفقير سلم من مطالعة الأسباب والتعلق بها

- فالفقير لما تعرف على مولاه وعلى أسمائه الحسنى وتعرف على اسم الله **(الأول)** وشهد بقلبه أوليته سبحانه لكل شيء كما قال صلى الله عليه وسلم: (**كان الله ولم يكن شيءٌ غيره**) فهو الأول قبل كل شيء كما قال صلى الله عليه وسلم (**أنت الأول فليس قبل كل شيء**)، فإنه يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية إذ السبب والمسبب هو منه تعالى.
- **يقول ابن القيم رحمه الله:**

عبودية الله بإسم الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف معها أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنه سبحانه المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأي وسيلة كانت هناك وإنما هو عدم محض ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان: 1]

- فمنه سبحانه الإعداد والإمداد وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده ولم تكن بوسائل أخرى.
- فمن نزل اسم **(الأول)** على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًا وعبودية خاصة

س فمن شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورا حتى سماك بإسم الإسلام؟

س ومن الذي حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان؟

س ومن الذي كتبك من الموحدين ومن الذاكرين؟

س ومن الذي ذكرك بالتوبة حتى وفقك إليها وأوقعها في قلبك وبعث دواعيك وأحيا عزماتك الصادقة حتى تبت إليه وأقبلت عليه فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها؟

س من الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت بينما غيرك في رقدة الغفلة مع النوام؟

س من الذي مُنّ عليك بمعرفتك إياه وفتح باب التعرف على أسمائه وصفاته؟

س ومن الذي وفقك لخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به ؟ فهذا كله من آثار ذكره لك وأنت لم تكن شيئًا مذكورا.

- فالله سبحانه وتعالى ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة، ذكرك بها قبل وجودك، وتعرف بها إليك وتحبب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده، إذا هو الجواد المحسن لذاته، لا لمعاوضة ولا بطلب جزاء منك، ولا لحاجة دعته إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد؟
- **فإذا وصل إليك أدنى نعمه منه:**

فاعلم أنه ذكرك بها، فلتعظم عندك لذكره لك بها، فهو الذي ابتدأك بمعروفه وتحبب إليك بنعمه.
فإذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له ووصل إلى قلبه شغله ذلك عما سواه وحصل لقلبه فقرًا خاصًا إلى ربه واستغنى بربه عمن سواه.

* فإذا علم وتيقن أنه عند ما يذكر ربه فإن الله يذكره كما جاء في الحديث القدسي: (**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرًا منهم**) متفق عليه

فهناك ذكر أول وهو أن جعله ذاكرًا، ثم هناك ذكر آخر وهو أن الله يذكره في ملأ خيرًا من ملئه.
وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له فقرًا خاصًا لربه زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه إياه.

الفقير تعلق بالله ولم يتعلق بالأسباب

فإذا شهد العبد الفقير سبق الله تعالى لكل شيء فهذا الذي يورث القلب :

1. عدم الالتفات إلى الأسباب
2. عدم التعلق بالأسباب
3. عدم الوثوق بالأسباب
4. عدم الوقوف مع الأسباب

وهذا الذي يورث القلب تعلقه والتفاته إلى المسبب الأول وهو الله والوثوق به.
وكيف لا؟

1. الله قبل الأسباب.
2. الله خالق الأسباب
3. الله مهيئ الأسباب
4. الله هو الذي ينفع بالأسباب، فلولا الله ما انتفع بالأسباب (**فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**)

- **فالفقيــر**

قد أراح نفسه من النظر أولا إلى مطالعة الأسباب سكونًا منه إلى المسبب الأول، فهو أخذ الأسباب مع تعلق القلب بمسببها فقد جمع بين الأمر والتوحيد.

- **الفقيــر**
- قد اعتقد بقلبه أن الله مهيئ الأسباب فإذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، فهو سبحانه الذي جاد على عباده بالأسباب وهيأها لهم وصرف عنهم الموانع والعقبات إلى أن أوجد لهم الأسباب فجعلها تحت أيديهم وسخرها لهم ويسرها له بحيث أصبحت لهم ميسرة، وليس للعبد سوى الأخذ بها ، فمنه سبحانه الإعداد والإمداد وفضله سابق على الوسائل.

- **الفقيــر**

قد اعتقد بقلبه أن الأسباب قد تهيأ له ولكن لا يوفق لاستخدامها إلا أن يشاء الله كما قال تعالى :

﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان:30]

- **الفقيــر**

قد اعتقد بقلبه أنه ربما يوفق لاستخدام الأسباب بعد تهيئة الله له ولكنه قد لا ينتفع بها، فالله عز وجل هو النافع الضار إن شاء نفعك بها وإن شاء لم ينفعك.

- **الفقيــر**

بعد أن مَنَّ الله عليه بالإنتفاع بالأسباب، أسقط الأسباب من قلبه لإعتقاده أن الذي يسر له الأمور هو الله، والذي أعطاه هو الله والذي وفقه هو الله، ولولا الله ما انتفع بالأسباب فقابل ذلك بالحمد والشكر والإستغفار.

☼ فإذا وجد الله في قلب الفقير هذا كله:

1. أحبه الله.
2. وشغله به عن الأسباب.
3. وجعل قلبه معلق به.
4. وسدده وأرشده.

تعلق قلب العبد تعلق بربه وثقته به وعدم وثوقه بقدرته الذاتية

الفقير:

لا يغفل عن حقيقة نفسه، ولم يغفل عن فضل ربه، وعلم أن الله خلق له الأسباب ومكنه منها ليختبره هل يعتمد على نفسه أم على ربه، وهل يشكر نفسه أو يشكر ربه كما قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:78]

الفقير:

يعلم أنه ليس له مقومات ذاتية للنجاح أو الفلاح ويعلم أنه يستمد قوته من الله لحظة بلحظة فلا قيمة للأسباب بدون المدد الإلهي المستمر.

الفقير:

هو الذي تيقن أنه ليس من نفسه إلا العجز التام وليس له قدرة على الفهم والحركة والتفكر، فيتبرأ من حوله وقوته، لأنه لا يملك من أمره شيئًا، وليس له حيلة في دفع الشر ولا جلب الخير إلا بإرادة الله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الفقير:

الذي يعلم أنه لا صلاح للقلب إلا أن يتجرد من رؤية نفسه ويتبرأ من حوله وقوته.

الفقير:

هو الذي تيقن أن كل نعمة وكل طاعة وفقه الله لها ما هي إلا وجود مدد مستمر ولو أغلق هذا المدد لانتهى أمر هذه النعمة.

الفقير:

الفقير هو الذي يعلم أن الثقة بالقدرات الذاتية سببًا لغضب الرب لجحد نعمة ربه وجحد فضله وتوفيقه وإعانته.

الفقير:

الفقير يعلم أن العبد إن اعتمد على قدرته الذاتية من فهم وذكاء وقدرة فهذا دليل على أنه حُرم من مشاهدة المنة، ولم ينتفع بنعمة العلم والإيمان، واستغنى بنفسه عن ربه، وما شم رائحة الافتقار ويحرم من تحقيق التوكل على الله وهذا خروج عن مقتضى العبودية.

الفقير:

الفقير يعلم أن السير إلى الله يتطلب أن يكون العبد فقيرًا إلى ربه محتاجًا إليه بالضرورة مع كل نفس وكل ذرة من ذراته وكل طرفة عين.

الفقير:

يعلم أن السير إلى الله يقتضي أن ترى نفسك على حقيقتها، ترى نفسك ضعيفًا دائمًا تحتاج إلى ربك لتلجأ إليه لتحتمي به ليدفع عنك ويقويك ليحفظك ويمدك ويعينك.

إذا سلم العبد من التعلق بجميع الأسباب وسلم من التعلق بقدرته الذاتية استطاع أن يحقق التوكل على الله

إذا سلم العبد من التعلق بالأسباب والثقة بها والاعتماد عليها وسلم كذلك من الاعتماد على قدرته الذاتية، فلا يتم له حقيقة التوكل إلا بذلك فمن فعل ذلك رأى نفسه فقيرًا إلى الله متبرئًا من أحواله كلها ليس به شيء، وليس منه شيء، ولا له شيء، ولا به يستطيع، ولا له ليملك، ولا منه ليتمكن ،كل ذلك لله تعالى وهذه هي حقيقة العبودية.

فالفقيـــر:

فوض كل أموره إلى ربه واعتمد عليه في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره ووثق به في تسهيل أموره، فهو سبحانه حسبه وكافيه كما قال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:3]

فالفقير:

متوكل على ربه ولا يتم له ذلك إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها فعندما يكون في قلب العبد شيء من الأعمال المتعلقة بالجوارح دل ذلك على ذهاب شعبة من شعب القلب في التوكل وعدم تجريد التوحيد في كل أموره ولكن الفقير منقطع القلب من الأسباب وإن كان متصلا الجوارح بهذه الأسباب ومتصل بالله عز وجل.

فالفقير:

يتوكل على الله لأنه الحي الذي لا يموت كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:58]

أي لا تتوكل على أحد في الدنيا ولا في غيرها إلا على الله لا على نفسك ولا على غيرها حاكمًا كان .... أميرًا كان .... عظيمًا كان ..... كبيرًا كان .... قويًا كان، لأن كل ذلك فان، لأنه الحي الذي لا يموت، فقيدها أن هذا الحي الذي نتوكل عليه ينبغي ألا يكون معرضًا للفناء، فالذي يموت حياته بيد غيره، فإن توكلت عليه وأصبح ميتًا ضاع عليك ما قصدته لأجله، أو ما طلبته منه، أو توجهت به إليه.

ولذلك نهاك أن تتوكل على أي أحدٍ غيره؛ لأن هذا الغير يموت ويفنى وينتهي، فالجن والإنس يموتون، فيخرج بذلك من قلبك كل ركون إلى غيره أو الثقة في ذلك الغير أو الاعتماد على هذا الزائل.

ثانيا: الفقير سلم من منازعة الرب

- **فالفقير:**

الذي تعرف على الله وعلى أسمائه الحسنى وصفاته العلى رضي بما يقدره عليه ربه وانسلخت نفسه من التدبير والاختيار المزاحم الذي يخالف تدبير الله واختياره، بل سلم إليه سبحانه التدبير كله لعلمه أنه الملك القاهر القابض على نواصي الخلق، المتولي أمر العالم كله.

- **الفقيـــر:**

الذي تعرف على إسم الله (المحسن) وعلم أن أفعاله كلها حسنى ليس في أفعاله عبث ولا في أوامره سفه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة.

- فمعاملة الرب مع الخلق إما أن تكون فضلاً أو تكون عدلاً [إن أعطى فبفضله ورحمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته]
- فالله سبحانه وتعالى له الحمد في الأولى والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ [سبا:1]

أي يوم القيامة، فالحمد يكون لكل أحد فأهل الجنة معلوم لأنه عاملهم بفضله، وأهل النار كذلك لأنهم لا يدخلون النار إلا وقلوبهم ممتلئة بحمده سبحانه لما ظهر لهم من عدله سبحانه.

الفقير إنقطع قلبه عن الخواطر الرديئة في فعل الرب

- **الفقيـــر:**

هو الذي أنقطع عن قلبه الخواطر الرديئة في فعل الرب وانتقاد أفعاله، فلا يدخل نفسه معه في تدبيره لملكه وتصريفه أموره أمور عباده بلو كان كذا وكذا، ولعل، ولا بليت، بل ربه أجّل وأعظم في قلبه من أن يعترض عليه أو يتسخط تدبيره أو يتمنى سواه.

* **قال بعض السلف:** لو قرض جسمي بالمقاريض أحب إليّ من أن أقول لشيء قضاه الله ليته لم يقضه.
* **وقال آخر:** أذنبت ذنبًا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة وكان قد اجتهد في العبادة ، قيل له ما هو؟ قال: قلت مره لشيء كان ليته لم يكن.

فأفسد ما يفسد القلوب انتقاد فعل الرب، لأنه يناقض إيمانك بأنه محسن، وهذه تعتبر جريمة؛ لأنك تحكم بعقلك على ربك.

فعندما يقول العبد:

س لماذا أعطى فلان؟

س لماذا منع فلان؟

س لماذا أمرض فلان؟

كل هذه الأمثال تضرب في وصف أفعال الله تعالى، وهذا انتقاد لا يخلو منه أحد إلا من سلمه الله، ومن أجل ذلك لا بد من أن يراجع كلاً منا نفسه، فنحن نحتاج إلى إعادة لدراسة أسمائه وصفاته لكي يستقر في قلوبنا معاني كمال صفاته سبحانه، وينقطع من قلوبنا الخواطر الرديئة التي تنزل العبد منزلاً سيئًا فهذه ثغرة عظيمة موجودة في القلوب وغير محسوس بها.

الفقيـــر:

يفر إلى الله دائمًا بالتسبيح والحمد.

- بالتسبيح أي يقول (سبحان الله) أي أنزه الله أن يكون له فعل سفه، لابد أن يكون له حِكمة، لكن أنا عبد ضعيف قاصر عقلي لا يستطيع أن يدرك مصالحه، فكيف يدرك مصالح غيره.
- فإذا نزه الله عن أن يكون له فيه نقص، وإذا أبعد عن خواطره هذا الفكر السيء ألحقه (بالحمد) لأنه يرى آثار فضله وعدله وحكمته في كل شيء.

الفقير سلم من القنوط من رحمة الله

- **الفقير:**

سلم من سوء الظن بربه وذلك بعدم قنوطه من رحمة الله لعلمه أن القنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب، لأن القنوط هو شدة اليأس، لأنه يبعد الرجاء والأمل بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف كربته ويستبعد زوال المكروه

- **الفقير:**

يعلم أن القانط من ربه ضالاً، أي فاقد الهداية التامة الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه مع أنه قريب الخبر كما قال تعالى ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:56]

- **الفقير:**

يعلم أن القنوط من رحمة الله طعن في قدرة الله ، لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لن يستبعد شيئًا عن قدرة الله.

- **الفقير:**

يعلم أن القنوط من رحمة الله طعن في رحمة الله؛ لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن الله سيرحمه.

- ولذلك تجد الفقير حسن الظن بالله دائمًا، فإذا دعا الله ظن أنه سيجيب دعاءه، وإذا عمل صالحًا ظن أن الله سيقبل أعماله ويجازيه عليها أحسن الجزاء، وإذا مرض ظن الله سيشفيه وهكذا يظل متعلقا بجميل الظن بربه وحسن الرجاء فيما عنده، فهو دائمًا يختار الظن الحسن وهو ظن الثواب والمغفرة وإيقاع الوعد وهذا هو الرجاء وخصوصًا في حال الضعف والافتقار كحال المحتضر، فإنه أولى من غيره بإحسان الظن بربه كما جاء في الحديث: **(فلا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)** [مسلم]

الفقير سلم من التسخط على أقدار الله

العبد الفقير إلى الله استسلم لقضاء الله وسلم من التسخط على أقدار الله ولم يعترض على حكمه ورضى بما قدره الله عليه، لأنه يعلم أن الله حكيم يضع الأشياء ويوقعها في مواضعها وأنه تعالى لا يقضي قضاء إلا كانت فيه حكمة تعجز العقول العاجزة عن إدراكها، فيجب عليه أن يصبر ويعلم أن الخير كله في هذا الصبر، ويعلم أنه لا خروج عن تدبير ربه وتصريفه له، بل ربما كان هذا البلاء منحة من الله لما يترتب عليه من حسن الأثر وعظيم الثواب كمال قال صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)**. [مسلم]

الفقيـــر،

يعلم أن التخسط على قدر الله من أخطر معاصي القلوب التي تعوق السير إلى الله، لأن المتسخط يجحد نعمة ربه ويعترض على تدبير مولاه، ولأن التسخط ينافي الإيمان، ولأن التسخط يحبط العمل، فقد يقوم العبد بأعمال كثيرة من صدقة وصيام وأعمال بر ولكن كل ذلك يحبط إذا أصاب قلب العبد ذرة تسخط، لأن هذا جزاء من اتبع ما يسخط الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ **[محمد:28]** ولأن السخط موجب لسخط الرحمن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن عظم الجزاء من عظم البلاء وأن الله عز وجل إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)** [حسنة الألباني]

الرضا البلسم الشافي لمرض التسخط

- فالرضا من أعظم مقامات الإيمان.
- الرضا يخلص العبد من الهم والغم والحزن والشتات وسوء الأحوال، لأنك لن تحزن على ما فاتك لمعرفتك بأن قدر الله لا يأتي إلا بكل خير.
- الراضي لا يختار قبل القضاء، بل يستخير ربه ويسأله أن يدبر له أمره ويتوكل عليه، ولا يتألم أو يجزع إذا جاء الأمر غير موافقا لهواه، بل يستقبل البلاء بسكينة وطمأنينة وثقة في الله، لأنه لم يضيعك.

◄ **قال ذو النون من علامات الرضا:**

1. ترك الاختيار قبل القضاء
2. فقدان المرارة بعد القضاء.
3. هيجان الحب في حشو البلاء.

الفقير راضي بربوبية الله كما أنه مقر بربوبيته

الفقيـــر:

الذي أقر بربوبية الله وعلم أن الله عز وجل هو الأول قبل كل شيء وهو الآخر بعد كل شيء وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يشرك في حكمه أحد والعبد لم يكن شيئًا مذكورا، فهو سبحانه الذي اختار أن يكون كما قدره له وقضاء من عافية وبلاء وغنى وفقر وعز وذل، فكما تفرد سبحانه بالخلق تفرد بالاختيار والتدبير وليس للعبد شيء من ذلك.

- فإذا تيقن العبد من أن الأمر كله لله وليس له من الأمر قليل ولا كثير لم يكن له معول بعد ذلك غير الرضا بالله بمواقع الأقدار وما يجري من ربه ورضي بربوبيته ورضى بما يقدره عليه من ربه من خير وشر.
- فإذا جاءته المصيبة في ماله أو أهله أو ولده لم يسخط ولم يجزع ولم يقنط، بل صبر واحتسب واسترجع ورضي وسلم.
- ولذلك قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن:11]

أي من أصابته مصيبة وعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب لقضاء الله، هدى الله قلبه وعوضه ما فاته من الدنيا هدىً في قلبه ويقينًا صادقا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منها أي يمنحه الله الاطمئنان والرضا والسكون ما يحول هذه النقمة إلى نعمة وهذه البلية إلى عطية.

- ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ هذا تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته وذلك يوجب الصبر والرضا.

* **فالرضا:** يخلص العبد من مخاصمة الرب في أحكامه وأقضيته.
* **فالرضا بقضاء الله وقدره:** يمنح الإنسان الطمأنينة والسكون عند نزول المصائب ويمنحه الأمن أيضًا قبل نزولها.

* الرضا أشق شيئًا على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإن مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، والنفس لا تصبح مطمئنة قط حتى ترضى بقضاء الله وقدره فحينئذ تستحق أن يقال لها عند الموت ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:27-30]

الفقير يعامل الله بعبودية الصبر والرضا إذا وقع عليه قهر من الله

الفقيـــر:

الذي وقع عليه قهر من القهار ونزل عليه قضائه وقدره بما لا يلائمه بنقص في المال أو الأولاد أو كذا وكذا، فإنه يعامل هذا النقص بنوع من انواع العبودية وهي الصبر والرضا لعلمه أنه لا راد لقضاء الله ولعلمه أن هذا القدر مقترن بالحكمة.

فالفقير عامل القضاء والقدر بما يورثه الأجر من:

1. تعظيم الرب.
2. الاعتقاد أن أفعال الله كلها حكمة ورحمة ومصلحة
3. معاملة القضاء والقدر بالصبر
4. وتتعالى من الصبر إلى الرضا التام عن الله.

ثالثا: الفقير سلم من مخاصمة الخلق

الفقير سلم من مخاصمة الخلق:

فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيرًا إلى حظ من الحظوظ يسخط لفواته ويخاصم الخلق عليه، لا يكون فقيرًا إلى ربه حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويض أمره إلى وليه ومتولي تدبيره.

فالفقير إلى ربه لم يخاصم عباده إلا في حقوق ربه، فتكون مخاصمته لله وبالله ومحاكمته إلى الله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح " صلاة الليل " **(اللهم لك أسلمت، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت)** فتكون مخاصمة هذا العبد لله، لا لهواه، ولا انتصار لنفسه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: (ما انتقم رسول الله صلى الله لنفسه قط) وهذا لتكميل العبودية.

الفقير يعامل الناس بما يرضي ربه

الفقيـــر:

يعامل الخلق بما يستحقون لا يرضيهم بسخط الله، ولا يخاصمهم ويذمهم على ما لم يؤته الله من جهتهم فيكون ظالمًا لهم ولا يحمدهم على ما هو عين رزق الله فيكون مشركًا بهم، إيمانًا بهذا الحديث

(إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على مالم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره). ومعناه صحيح

(واليقين) المراد به: الإيمان كله.

- **قال شيخ الإسلام:** اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله، وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا، لا بوعد الله ولا برزق الله، فإنه إنما يحملُ الإنسان على ذلك، إما ميلُ إلى ما في أيديهم، فيترك القيام فيها بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعفُ تصديقه بما وعد اللهُ أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم.

- (**أن ترضى الناس بسخط الله**): أي تؤثر رضاهم على رضى الله، فتوافقهم على ترك المأمور، أو فعل المحظور استجلابًا لرضاهم، فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك؛ لأن من قوي يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأن آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته.
- **قوله:(وأن تحمدهم على رزق الله)** أي تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق، بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة، وهو الله ربُّ العالمين الذي قدر هذا الرزق لك، وأوصله إليك بلطفه ورحمته، فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا.
- **قوله:(وأن تذمهم على مالم يؤتك الله)** أي: إذا طلبت منهم شيئًا فمنعوك تذمهم على ذلك، فلو علمت يقينًا أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأن المخلوق مدبر لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقا أتاك ولو اجتهد الخلق كلهم في دفعه، وإن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم في إيصاله إليك، لقطعت العلائق عن الخلائق، وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى.
- **ولهذا قرر ذلك بقوله : (إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرجه كراهية كاره)** أي فعل الأسباب وحرص الحريص موجبة للرزق ولكن هذا السبب ليس موجب مستقل وإنما الذي يرزق هو الله، فكم من إنسان يفعل أسباب كثيرة قليلة ويرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي كما لو مات له قريب غني يرثه وما أشبه ذلك.
- (**ولا يرده كراهية كاره**): أي أن رزق الله إذا قدر للعبد فلن يمنعه عنه كراهية كاره، فكم من إنسان حسده الناس لكن الله يرزقه.

الفقير يتعبد الله بإسمه القهار

إذا وقع عليه قهر من الخلق بأن ظلمه أو أساء إليه أو أخذ حقه؛ فإنه يتعبد الله بإسمه القهار لعلمه أنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قهر أصحابه، وتيقن أن شرهم لا يندفع بيده، إنما يندفع بقهر الله لهم فلم يشغل نفسه وقلبه ويصرف همه وتفكيره في الرد عليهم زمنًا طويلاً، فهذا نوع من أنواع تصريف الطاقة فيما لا يفيد بل حول هذا إلى دعاء ورجاء وسؤالاً لله أن يدفع عنه شر كل ذي شر وأن يرد كيدهم وأن يقهرهم وأن يدفعهم عن طريقه وأن يبرد قلبه وأن يجعل ناره رمادًا وأن يأخذ حقه منهم وهذا كله من إيمانه بإسم الله القهار.

فكلما ازداد هذا العبد الفقير بنفسه ضعفًا، تقوى بالله فهذا العبد هو الذي يستحق أن يرد الله عنه ويأخذ حقه.

الفقير رضي بعقد التبايع مع الله عز وجل

- قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [التوبة:111]

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن فإذا أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه ولا شيء له قبله، إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع، فإنه قد أوجب أجره على الله.

الفقير يعامل الخلق بحسن الخلق

☜ **الفقير يعامل الخلق بحسن الخلق إيمانًا منه بهذه الآية:**

كما قال الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف:199]

فهذه آية جامعة لحسن الخلق مع الخلق، فالفقير إلى ربه هو الذي يعامل الخلق بمقتضى هذه الآية.

1. **أن يأخذ العفو:** أي ما سمحت به أنفسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأقوال فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به من قول أو فعل جميل، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص لنقصه، ولا فقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم.

2. **وأمر بالعرف:** بكل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعلم علم أو نصيحة نافعة أو معاونة على بر وتقوى أوصله رحم أو إصلاح بين الناس.
- ولما كان لا بد من أذية الجاهل أمر الله أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه.
3. **وأعرض عن الجاهلين:** وهو أن يقابل الجاهل بالإعراض عن جهله الذي يجهل حق الغير ويفرط فيه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، فهذه ثلاث خصال يحبها الله ويحبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله (**يا عقبة صل من قطعك واعطي من حرمك واعف عمن ظلمك**) [صححه الألباني]

الفقير يعامل الخلق بالرفق

❖ **الفقير،**

يعامل الناس بالرفق، فإنه لا يبادر إلى البغضاء والقطيعة بدون رفق حتى يعلم عذر أخيه، وحتى إن لم يكن له عذر، فالرفق والمودة وسلامة الصدر والقلب أولى من الشحناء وسوء الظن.

الفقير يعامل الجاهل بالرفق

فإنه يعامل الجاهل خاصة برفق تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد فلما زجره الصحابة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي (**لا تزرموه**) أي لا تقطعوا عليه بوله، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه، فيالها من رحمة فإن النبي صلى الله عليه وسلم عالج المشكلة برفق ولين.

الفقير يعامل الأهل وذو الرحم بالتواضع وحسن الخلق

الفقير يعامل الأهل وذو الرحم بالتواضع وحسن الخلق.

يعامل أهله وذو رحمه بحسن الخلق وبالرفق فهم أولى من غيرهم.

تأسيًا بنبيهم صلى الله عليه وسلم ولهذا لما سئلت عائشة رضي الله عنها ماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته، قالت كان في مهمة أهله حتى أنه كان يحلب الشاة ويخصف نعله ويرقع

ثوبه، وهكذا ينبغي للإنسان مع أهله أن يكون خير الأصحاب.

- الفقير يعفو عن الخادم ومن على شاكلتهم سبعين مرة تأسيًا بهدي النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثما أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان الثلاثة قال: (**اعف عنه في كل يوم سبعين مرة**) صححه الألباني

الفقيـــر يعفو عن إساءة المقربين

الفقير يعفو عمن أساء إليه وخاصة من كان له قرابة أو أرحام يسيئون إليه، فإنه لا يقابل مسيئهم بمثلها، ولكن يعفو ويصفح ويزداد إحسانًا عملاً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن جاءه وسأله عن قرابته أنه يصلهم ويقطعونه ويحسن إليهم ويسيئون إليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (**لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**).

الفقيـــر لا يمن بعد العفو

من تمام عفو الفقير لا يُذكّر من عفا بسابق عفوه وألا يذكره بمنته عليه وخاصة إذا حدث موقف يذكره بما كان منه من السماح والعفو فلا يفعل ذلك بل يزيد في إحسانه له وهذا غاية المحو للجناية.

الفقيـــر يعامل من أساء إليه بكظم الغيظ

الفقير إذا أغضبه أحد أو أساء إليه لا يعمل غضبه في الناس بل يكف عنهم شره ويحتسب ذلك عند الله تأسيًا بهديه صلى الله عليه وسلم: (**ما من جرعة اعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله**) صحيح

- وقوله صلى الله عليه وسلم: (**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء**) حسنة الألباني

الفقيـــر يعالج غضبه بـوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإذا أساء إليه أحد وحضره الغضب فإنه يسارع بزوال ذلك الغضب بإتباع تعليمات وإرشادات النبي صلى الله عليه وسلم : (**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإذا ذهب عنه الغضب وإلا فليضجع**) إسناده صحيح.

الفقيـــر يتأسى بـأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في حلمه مع الخلق

الفقير إذا أغضبه أحد فإنه يتذكر سيد الحلماء ليتأسى به فقد آذاه قومه ورموه بالحجارة، وآذوه وقاتلوه وحاربوه وكان يدعو لهم بالهداية (**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**) فكان صلى الله عليه وسلم بعيد عن الغضب، يتسم بالهدوء والرزانة والتأني ويكثر من الصفح عن الزلات للمسيء، ويستر عيوبهم ويحفظ ودهم ويصون عهدهم ولا يتسخفن السفهاء ولا يسارع في الانتقام مع قدرته عليه.

فالفقير يتخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد نفسه حتى يكون الحلم له سجية كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:37] فهؤلاء لما تخلقوا بمكارم الأخلاق صار الحلم له سجية وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله كظموا ذلك الغضب ولم ينفذوه بل غفروه ولم يقابلوا السيئ إلا بالإحسان والعفو والصفح.

الفقيـــر يتصف بـصفات عباد الرحمن

الفقير إذا خاطبه الجاهل خطاب جهل، خاطبه هو خطابًا يسلم فيه من الإثم، ويسلم فيه من مقابلة الجاهل بجهله، فبالحلم والصفح ومقابلة المسيء بالإحسان والعفة عن الجاهل ورزانة العقل هو الذي أوصله أن يكون من عباد الرحمن حقا كانت هذه الآية في حقه كما قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان:63]

الفقيـــر يصبر ابـتغاء وجه الله

فالفقير يصبر على أذى الخلق ابتغاء وجه الله لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه طلبًا لمرضاة ربه ورجاء القرب منه والحظوة بثوابه وهذا الذي يورثه عقبى الدار التي هي أمنية النفوس وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح كما قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:22]

- فالفقير يدرء الحسنة بالسيئة، أي من أساء إليه بقول أو فعل لم يقابله بفعله، بل قابله بالإحسان إليه، فيعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه ويحسن إلى من أساء إليه، فإذا كان يقابل المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

الفقيـــر يعامل الخلق بـالإحسان ابـتغاءِ وجه الله عزوجل

وهؤلاء الذين أورثهم الله عقبى الدار كما قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:22]

فهؤلاء الذين يدرؤون بالحسنة السيئة: أي لمن أساء إليهم بقول أو فعل لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرمهم ويعفون عمن ظلمهم ويصلون من قطعهم ويحسنون إلى من أساء إليهم وهذه الدرجة أعلى وأعظم من العفو فقط.

☜ **فالفقيـــر،** يعفو عمن ظلمه وأساء إليه: لينال محبة الله، لأن الله يحب أهل العفو كما قال تعالى:
﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:134]

من علامات الافتقار إلى الله تعالى

❖ العلامة الأولى من علامات الافتقار: " غاية الذل لله تعالى مع غاية الحب"

فالمؤمن يُسلم نفسه لربه منكسرًا بين يديه، متذللاً لعظمته، مقدمًا حبَّه سبحانه وتعالى على كل حب. طمأنينة نفسه، وقرة عينه، وسكينة فؤاده؛ أن يُعفِّر جبهته بالأرض، ويدعو ربه رغبة ورهبة.

☼ **قال ابن جرير الطبري:** " معنى العبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة" تفسير ابن جرير

ومَنْ كانت هذه حاله وجدته :

1. وقافا عند حدود الله.
2. مقبلاً على طاعته
3. ملتزمًا بأمره ونهيه.

فثمرة الذل: أن لا يتقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، مهتديًا بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: 36]

- **تفسير الآية:** أي لا ينبغي ولا يليق بمن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فلا يليق بالمؤمن والمؤمنة إذا قضى الله أمر من أمور وألزمه به أن يكون له الخيار (هل يفعل أم لا؟) بل لا بد له من الاتباع؛ لأن عصيان الله ورسوله سبب للضلال لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى دار كرامته.

وقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: 285]

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور:51-52]

- **قال الحسن رضي الله عنه:**" ما ضربتُ ببصري، ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولانهضتُ على قدمي، حتى أنظر أعلى طاعة أو على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدمتُ، وإن كانت معصية تأخرتُ " جامع العلوم والحكم

وأمَّا مَنْ طاشت به سبل الهوى، ولم يعرف الله عز وجل حق المعرفة، فتراه يستنكف الاستسلام لربه عز وجل، ويستكبر فلا يخضع له قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ [النساء:172-173]

- ويقول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة:15]

* **تفسير الآية:** إنما يؤمن بآياتنا إيمانًا حقيقًا من يوجد منه شواهد الإيمان وهم الذين إذا تُليت عليه آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها وانقادوا، وخروا سجدًا أي خاضعين لها خضوع ذكر الله وفرح بمعرفته، فهم متواضعون قد تلقوا أوامر الله بالقبول والانشراح والتسليم وتواصلوا بها إلى مرضات الرب الرحيم واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

- **قال شيخ الاسلام:** (كلما إزداد القلب حبًا لله إزداد له عبودية، وكلما إزداد له عبوديًا إزداد له حبًا وحرية عما سواه فالقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين:

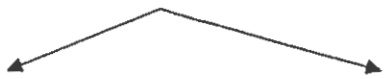

من جهة العبادة **ومن جهة الاستعانة والتوكل**

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يُسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذا فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه"

- **وقال ابن القيم:** " إنَّ مقام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادًا وطاعة، ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لقهره، ذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه"

مقتضيات التذلل لله عز وجل:

1. التواضـــع

التواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:159]

التواضع لله خلق يتولد من قلب عالم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته.

التواضع:

1. انكسار القلب للرب جلا وعلا.
2. خفض الجناح والذل والرحمة للعباد.

فلا يرى المتواضع له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبله.

وهذا خلق إنما يعطيه الله من يحبه ويكرمه ويقربه قال صلى الله عليه وسلم (**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**)

فالتواضع: هو عدم التعالي والتكبر على أحد من الناس، بل على المسلم أن يحترم الجميع مهما كانوا فقراء أو ضعفاء أو أقل منزلة منه ، وقد أمرنا الله عز وجل بالتواضع فقال: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:215]

وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:83]

- **سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال**: (أن تخضع للحق وتنقاد إليه ولو سمعته من أجهل الناس قبلته)

2. عـدم الكبـــر

- وعدم الكبر من مقتضيات التذلل لله عز وجل - نزغ جلباب الكبرياء والتعالي والتعاظم، والانكسار بين يدي جبار السماوات والأرض، والخضوع لأمره ونهيه، فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة - رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **العزّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته** " [مسلم]

- **حقيقة الكبر:** هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير من صفات الكمال (الديني أوالدنيوي) وهذه الرؤية تنفتح فيه فيحصل في قلبه هزة وفرح وركون إلى ما اعتقده، وعز في نفسه بسبب ذلك.
- قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر:56] قال عظيمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة.
- فالكبر آفة عظمة، وفيه يهلك الخواص وقلما ينفك عنه العباد الزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفتة وقد قال صلى الله عليه وسلم: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**) مسلم

س ملماذا كان الكبر حجابًا دون الجنة؟

لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس تغلق الأبواب كلها.

فالمتكبر
- لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه
- لا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين
- لا يقدر على ترك الحقد
- لا يقدر أن يداوم على الصدق
- لا يقدر على ترك الغضب وكظم الغيظ
- لا يقدر على ترك الحسد
- لا يقدر على قبول النصح

- فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه.
- وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفًا من أن يفوته عزه.

س ما السبب الذي يوصل العبد مع زياده العلم كبرًا أو أمنًا؟

1. **السبب الأول:** أن يكون اشتغاله بما يسمى علمًا أو ليس علمًا حقيقيًا، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب عنه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ [الفاطر: 28]
2. **السبب الثاني:** أن يخوض العبد في العلم والعبادة وهو خبث الدخلة رديء النفس سيء الخلق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه من أنواع المجاهدات فيبقى خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أيًا كان صادف العلم في قلبه منزلاً خبيثًا.

- والمتأمل في جميع العبادات الظاهرة والباطنة يظهر له بجلاء أن مقصود العبادة أن يُطامن العبد من كبريائه، ويتذلل لمولاه، ويظهر الفاقة والمسكنة لربه عز وجل، انظر في أحكام الصلاة أو الصوم أو مناسك الحج... ونحوها، تجد ذلك جليًا لا غموض فيه.

الكبر والخيلاء والتعالي من قوادح الافتقار

ولهذا فإن الكبر والخيلاء والتعالي من قوادح الإيمان بالله والافتقار إليه، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " **لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرياء**" مسلم

ومن تمام التذلل لله عز وجل والافتقار إليه، ألا يتكبر الإنسان على الخلق مهما بلغ جاهه، أو عظم سلطانه، أو ماله، أو علمه؛ لأنه يعرف قدره، ويعرف مآل المتكبرين في الدنيا والآخرة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " **ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جوّاظ مستكبر**" [البخاري]

- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " **احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون المتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين. فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء- وربما قال: أصيب بك من أشاء - وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها؟** [مسلم]

- ومن حكمة الخالق - جل وعلا - أن المتكبرين الذين يتعاظمون على الخلق يذلهم الله ويضع من منازلهم وأقدارهم، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته**) حسنة الألباني

❖ العلامة الثانية من علامات الافتقار:
" تعلق القلب بالله"

فشعور العبد بفقره وحاجته إلى ربه عز وجل يدفعه إلى

1. الاستكانة له
2. والإنابة إليه
3. ويتعلق قلبه بذكره وحمده والثناء عليه، والتزام مرضاته، والامتثال لمحبوباته.

- **قال بعض الصالحين:** " مفاوز الدينا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب"

ولهذا ترى العبد الذي تعلق قلبه واشتغل في بيع وشرائه، أو مع أهله وولده، أو في شأنه الدنيوي كله مقيمًا على طاعته، مقدمًا محبوباته على محبوبات نفسه وأهوائها، لا تلهيه زخارف الدنيا عن مرضاة ربه، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

[البقرة:177]

☜ **وثبت في الصحيحين أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله....)** وذكر منهم: **(رجلٌ قلبه معلّق في المساجد)** **[البخاري ومسلم]**

- **قال الحافظ ابن حجر:** " إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه " ولاحِظ هذا التعبير البليغ: **(قلبه معلّق)** ، وهذا يعني: أنه دائم الصلة بالله تعالى، دائم الاستحضار لأوامره، لايشغله عن ذلك شاغل، ولا يصرفه عن صارف، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ **[النور:36،37]**

أي رجال لا تلهيهم ولا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم، الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق، نزلت هذه الآية في الصحابة، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا للصلاة.

- **وعن ابن مسعود** - رضي الله عنه - رأى قومًا من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة، تركوا بيوعاتهم، ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبدالله بن مسعود: " هؤلاء من الذين ذكرهم الله في كتابه ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾

- **قال مطر الوراق:** كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده، خفضه وأقبل إلى الصلاة ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ يخافون يوم القيامة من شدة هوله وإزعاجه القلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل وترك ما يشغل عنه.

☜ **وثبت في الحديث الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - :** " أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كان يكون في مهنة أهله - تعني: خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة " [البخاري]

☜ **ويصف الإمام ابن القيم الافتقار إلى الله تعالى بقوله:** " يتخلى بفقره أن يتأله غير مولاه الحق، وأن يُضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يُفرِّق همومه في غير محابه، وأن يؤثر عليه في حال من الأحوال، فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله، وخلوص الود، فيصبح ويمسي ولا همَّ له غير ربه، فقد قطع همَّه بربه عنه جميع الهموم، وعطلت إرادته جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه "

حال القلب المتعلق بربه

ومن تعلق قلبه بربه وجد لذة في طاعته وامتثال أمره لا تدانيها لذة " فأوامر المحبوب قرة العيون، وسرور القلوب، ونعيم الأرواح، ولذات النفوس، وبها كمال النعيم، فقُرَّة عين المحب في الصلاة والحج، وفرح قلبه وسروره ونعيمه في ذلك، وفي الصيام والذكر والتلاوة.
وأما الصدقة فعجب من العجب، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والصبر على أعداء الله سبحانه؛ فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف، ولا يدركه مَنْ ليس له نصيب منه، وكل مَنْ كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم.

تعلق القلب بالله يشتد في أربع مواضع

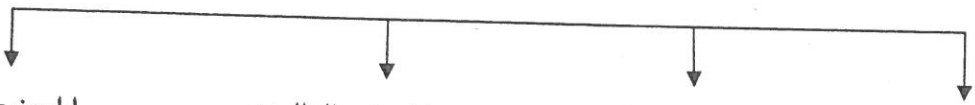

☼ **الموضع الأول: "عند أخذ مضجعه"**

وتفرغ حواسه من الشواغل واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به فهذا قلبه قد قطع الأكوان وسجدت روحه تحت العرش وبدنه على فراشه.

- **كما قال أبوالدرداء رضي الله عنه:** إذا نام العبد المؤمن عرج بروحه حتى يسجد تحت العرش، فإن كان طاهرًا أذن له بالسجود، وإن كان جنبًا لم يؤذن له بالسجود.
- ولهذا والله أعلم هو السر الذي لأجله أمر النبي- صلى الله عليه وسلم - الجنب إذا أراد النوم أن يتوضأ.

☼ **الموضع الثاني: "عند انتباهه من النوم"**

فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه فإذا استيقظ وردت عليه روحه رد معها ذكر محبوبه الذي غاب عنه في النوم، فلما ردت إليه الروح أسرع في الطرف إلى ذكر محبوبه وهجم عليه قبل أي طارق فأول ما يجري على لسانه ذكر محبوبه والتوجه إليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به لئلا يخلي بينه وبين نفسه، وألا يكله إليها، فيكله إلى ضعف وعجز وذل وخطيئة، بل يكلأه كلاءة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فأول ما يبدأ **" الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور"** متدبرًا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت وأعاد إليه حالة سويًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي لولا الله الذي دافع عنه لما سلم، ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة وعدها عليه من جملة نعمه تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: 42] فإذا استيقظ هذا القلب صعد بهمه وحبه وأشواقه إلى الله طالبًا له محتاجًا إليه عاكفًا عليه فيبدأ بالأذكار فيجعلها وردًا لا يخل به أبدًا، فإذا جاء على ما فرض الله بادر إليه مكملاً له ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق لمحبة محبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئًا ما، بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله ليقع موقعًا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه.

- أفلا يستحي العبد من ربه ومولاه ومعبوده ألا يكون في عمله هكذا، وهو يرى المحبين في أشغال

محبوبهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعهم على أحسن وجه وأكمله.

- ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجه بعمله أو يرضاه لربه.

❖ وهكذا حال العبد مع ربه في جميع أعماله فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه فهو أبدًا يستغفر عقب كل عمل كما قال تعالى: ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات:18]

- **قال الحسن:** مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم فهو لا يزال مستغفرًا تائبًا وكلما كثرت طاعته كثرت توبته واستغفاره.

فهو يقوم بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن فتكون حركات نفسه وجسمه كلها من محبوبات الله، وكمال عبودية العبد بموافقته لربه في محبة ما أحبه، وبذل الجهد في فعله.

☼ **الموضع الثالث: "عند دخوله في الصلاة"**

فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل، ويتحقق حاله ومقامه، ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها، فلا شيء آثر عند المحب، ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه، وقد أقبل محبوبه عليه، فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وآوى عنده واطمأن بذكره، وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهم إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح فيزول همه وغمه، فالصلاة قرة عيون المحبين وسرور أرواحهم ولذة قلوبهم وبهجة نفوسهم يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقارين شأن يشكون إلى الله سوء صنيعهم بها إذا ائتموا بهم كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان من فاضل بين النفوس وتفاوت بينها هذا التفاوت العظيم.

☼ **الموضع الرابع: "عند اشتداد الأهوال"**

فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم، ولذلك نرى أنه عند مصائب الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء إليه وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكر المحبوب الذي يفوت بفوات حياته.

- ولهذا والله أعلم كثيرًا ما يعرض للعبد عند موته لهجة بما يحبه وكثرة ذكره له، ربما خرجت روحه وهو يلهج به.

- **وذكر ابن أبي الدنيا في "كتاب المحتضرين":**
- **عن زفر:** أنه جعل يقول عند موته " لها ثلاثة أخماس الصداق، لها ربع الصداق، لها كذا، وهذا من امتلاء قلبه من محبة الفقه والعلم، وأيضًا فإنه عند الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه فيظهر ما في القلب ويقوي سلطانه فيبدو ما فيه غير حاجب ولا مدافع "

* وكثيرًا ما سمع من بعض المحتضرين عند الموت: شاه مات؛ لأنه كان مشغولاً بلعب الشطرنج.
* وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغني به حتى مات: وكان مغنيًا.
* ومات تاجر لبيع القماش فجعل يقول: هذه قطعة جيدة، هذه على قدرك.

فمن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو عليه عند خروج روحه إلى الله.

ومن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه.

أعظم الناس ضلالاً من تعلق قلبه بغير الله

أعظم الناس ضلالاً وخسارًا مَنْ تعلق قلبه بغير الله تعالى ، ولهذا كان ركون العبد إلى الدنيا أو إلى شيء من زخرفها آية من آيات العبودية لها، قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:23]

- ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾: أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه.
- **قال في البحر:** أي هو مطواع لهوى نفسه، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنما يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

(تفسير الكريم الرحمن)

- أفرأيت الرجل الضال الذي يأتمر بهواه الذي اتخذ إلهه هواه، فما هواه سلكه سواء كان يرضى الله أم يسخطه. (صفوة التفاسير)
- ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك

والمعنى الثاني: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه.

فائـــدة:

ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها هوى النفس شرك وكفر، ولذلك ورد إطلاق الإله عل الهوى المتبع كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾

من تمام العبودية:

أن يجعل العبد هواه تبعًا لشرع الله كما قال - صلى الله عليه وسلم- : (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**) فهذه هي العبودية الحقة لله.

- فإن امتثل ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه " وإن كان مخالفًا لهواه " فهو المؤمن الحق، فكيف إذا كان لا يهوى سوى الله.

- **ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:**

❖ **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطي سخط، تعس وانتكس وإذا شِيكَ فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)** [البخاري]

هذا الحديث يقسم الناس إلى قسمين:

القسم الأول: ليس له همّ إلا الدنيا — **والقسم الثاني: من ليس له همّ إلا الآخرة**

☼ الأول: ليس له هم إلا الدنيا

- فقد استعبدت قلبه إما لتحصيل المال أو لتجميل الحال حتى أشغلته عن ذكر الله.
- (تعس) : أي خاب وهلك وشقي
- (عبد الدينار): الدينار من الذهب وسماه عبد الدينار؛ لأنه تعلق به فكان أكبر همه وقدمه على طاعة

ربه، وهو الطالب الحريص على جمعه، القائم على حرصه فكأنه لذلك خادمه وعبده.

- **وقد أراد المؤلف أن يبين:** أن من الناس من يعبد الدنيا، أي يتذلل لها ويخضع وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت ولهذا سمى النبي صلى الله عليه سلم من هذا شأنه عبدًا لها.
- **(تعس عبد الدرهم):** هو النقد من الفضة، ويقال لعبد الدرهم كما قيل لعبد الدينار.
- **(تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة):** وهذا الذي يعني بمظهره وأثاثه.

- **الخميصة:** كساء جميل - **الخميلة:** فرش وثير

فهذا العبد ليس له هم إلا هذا الأمر، فلما صرف لهذه الأشياء جهده وهمته وحرصه كان عبدًا لهذه الأمور.

- **ومن علامة عبوديته لتلك الأشياء: (إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطي سخط):**

- وذلك أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

وهذا يدل على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدًا لها فهذا سخطه ورضاه لغير الله.

- وهكذا حال من كان متعلقًا منها برئاسة مثلاً ونحو ذلك من أهواء نفسه.

- **(إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطي سخط) يحتمل أن يكون:**

المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدريًا إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله، كأنه يقول: لماذا كنت فقيرًا وهذا غنيًا؟ وما أشبه ذلك فيكون ساخطًا على قضاء الله وقدره؛ لأن الله منعه.

ويحتمل: أن يراد بالإعطاء هنا الشرعي أي: إن أعطى من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي وإن لم يعطى سخط.

- والله سبحانه وتعالى يعطي ويمنع لحكمة، يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

☼ والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره.

إن أعطى شكر وإن منع صبر.

☼ وكل المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا

سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عبدًا له.

☼ **(تعس وانتكس):** أي خاب وهلك، وانتكست عليه الأمور بحيث لا يتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور بخلاف ما يريد وهذا دعاء عليه بالخيبة.

☼ **(وإذا شِيكَ فلا انتقش):**

- **شِيكَ:** أصابته شوكه.
- **فلا انتقش:** أي لا يقدر على إخراجها بالمنقاش.

أي إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش، وفيه دعاء عليه لكونه قصر عمله على جمع الدنيا، واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات.

❖ **يستفاد من هذا الحديث:**

أن الذي ليس له هم إلا الدنيا، قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة بخلاف الصادق مع الله الذي لا يهتم بالدنيا، بل أراد الله والدار الآخرة ولم ينسى نصيبه من الدنيا وقنع بما قدره الله له.

▪ **فائـدة:**

- **وهذا هو القسم الأول من الحديث:**

من ليس له هم إلا الدنيا إلا لتحصيل المال أو لتجميل الحال فقد استعبدت قلبه حتى أشغله عن ذكر الله، وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله ومحبة أعمال الآخرة.

☼ القسم الثاني: من ليس له هم إلا الآخرة

أكبر همه الآخرة فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

(طوبى) والمعنى: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وهذا ثناء من المصطفى - صلى الله عليه وسلم -لهذا العبد.

1. فهذا العبد ممسك بمعقود فرسه الذي يقاتل عليه.
2. يقاتل في سبيل الله، فهو قصده حماية وطنه لكونه بلد إسلامي
3. رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله.
4. وهو مع ذلك لا يبالي إن قيل إحرس أو كن في الساقة، ففي أي موضع فعل لا يطلب مرتبة أعلى.

5. وهو مع ذلك عند أهل السلطة ليس له مرتبة، وليس له جاه ولا شرف، وإن استأذن لا يؤذن له. ولكنه له المنزلة العالية عند الله؛ لأنه يقاتل في سبيل الله وذلك مصداقا لقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:13] فهذ الذي يحق له أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش.
6. **قال ابن القيم:** تعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه، عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام ، ولهذا كان شرك عبّاد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس.

تعلق القلب بغير الله

يوصف لنا شيخ الإسلام ابن تيمية: " أن كل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا متصرفًا بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر.

- فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيرًا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه. فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدًا لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض، وله من تلك العبودية لما استعبد القلب".
- **وقال الإمام ابن القيم:** " أعظم الناس خذلانًا مَنْ تعلق بغير الله، فإنَّ ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرَّض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت"

التعلق بالأسباب صنم العصر

كان في الماضي أكبر صنم يعبده المسلمون تلك الأضرحه والقبور بالمساجد ولكن ظهر الآن الصنم الأكبر الذي يشترك لأول مرة المسلمون مع المشركون من كل الملل في عبادته إنه الأسباب

- فإن كثيرًا من الناس وقفوا مع صنم الأسباب ولم يتوجهوا إلى الله في كل حركاتهم وآمالهم وأصبح الله عز وجل في حياتهم هو الذي يصلون له ويزكون ويحجون وليس موجودًا في باقي حياتهم .

والواقع الأليم الذي يبين ويؤكد وقوع الناس في عبادة هذا الصنم:

1. وهو الإكتفاء بالإلتفات إلى الأسباب.
2. والركون إليها.
3. والإعتماد عليها حتى أصبحت صنمًا أعظم.

وتأمل ما يحدث للناس من مكروه أو غيره كيف يرجعونه إلى:

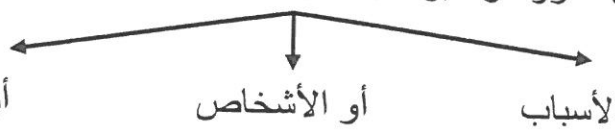

وغفلوا أو تغافلوا عن قوله تعالى: ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [فاطر:4]

- ولذلك عرف السلف التوحيد بقولهم: (أن ترى كل شيء من الله) رؤية تقطع الإلتفات إلى الأسباب.

فالله عز وجل :

1. هو الأول قبل كل شيء
2. الله خالق الأسباب
3. الله يهئ الأسباب
4. الله قد يهئ الأسباب ولن توفق لاستخدامها.
5. الله يهئ الأسباب وتستخدمها وقد لا تنتفع بها.

ولذلك يجب على العبد إذا إنتفع بما هيأ الله له من أسباب أن ينتبه لأمر مهم هو إسقاط الأسباب من القلب لأن الذي هيأ الأسباب ووفق لاستخدام الأسباب ونفع بالأسباب هو خالق الأسباب.

الدعاء أقوى الأسباب

الدعاء أقوى الأسباب وأسرع الأسباب وأهم الأسباب.

- **ولهذا قال شيخ الإسلام:** (إن الدعاء من أهم الأسباب) ومع ذلك فإن الناس يأخذون الأسباب إلا أهمها.

❖ العلامة الثالثة من علامات الافتقار:
" مداومة الذكر والاستغفار"

فقلب العبد المؤمن عاكف على ذكر مولاه، والثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى في كل حال من أحواله، دائم التوبة والاستغفار عن الزلل أو التقصير، يجد لذته وأنسه بتلاوة القرآن، ويرى راحته وسكينته بمناجاة الرحمن قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:28]

وقد وصف الله عز وجل أهل الإيمان بقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:9]

❖ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران:190-191]

❖ كما أمر الله عز وجل نبيه بمداومة الذكر والاستغفار، فقال سبحانه: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر:55]

ولهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة**) [مسلم]

◀ **وقال عليه الصلاة والسلام: (والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة)** [البخاري]

◀ **وقال عليه الصلاة والسلام: (وإنه ليُغان على قلبي وإني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة)** [مسلم]

إن مداومة الذكر والاستغفار آية من آيات الافتقار إلى الله تعالى، فالعبد يجتهد في إظهار فاقته وحاجته وعجزه، ويمتلئ قلبه مسكنة وإخباتًا، ويرفع يديه تذللاً وإنابة، فهو ذاكر لله تعالى في كل شأنه، في حضره وسفره، ودخوله وخروجه، وأكله وشربه، ويقظته ونومه، بل حتى عند إتيانه أهله، فهو دائم الافتقار إلى عون الله تعالى وفضله، لا يغفل ساعة ولا أدنى من ذلك عن الاستعانة به والالتجاء إليه .

☼ ومقتضى ذلك أنه لا يركن إلى نفسه، ولا يطمئن إلى حوله وقوته، ولا يثق بماله وجاهه وصحته، ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: (**اللهم لا تكلهم إليَّ فأضعف، ولاتكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم**) [صححه الألباني]

☼ وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: دعوات المكروب: (**اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**) [صحيح سنن أبي داود]

- (**اللهم رحمتك أرجو**) أي نخصك برجاء الرحمة منك، فلا نرجوها من أحد سواك.
- **(فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين)** فيه شدة إفتقار العبد إلى الله وأنه لا غنى له عن ربه ومولاه طرفه عين في كل شأن من شؤونه.
- ولهذا قال: **(أصلح لي شأني كله)** أي في كل جزئية من جزئيات حياته وكل جانب من جوانبه.
- ثم ختم هذا الدعاء المبارك بكلمة التوحيد (**لا إله إلا أنت**) وفي هذا دلالة على أن أعظم علاج للكرب هو ترديد كلمة التوحيد فما زالت عن العبد شدة ولا ارتفع عنه هم وكرب بمثل التوحيد الله.

☼ وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة - رضي الله عنها - " **ما يمنعكِ أن تسمعي ما أوصيكِ به؟ أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا**) [حسنه الألباني]

- (**يا حي يا قيوم برحمتك استغيث**) هذا الدعاء من أعظم الأدعية التي تتضمن تحقيق العبودية لله رب العالمين، وتتضمن التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته وهو سبحانه الحي القيوم الرحمن الرحيم. والعبد يستغيث برحمة الله التي وسعت كل شيء لعله ينال منها ما يسعده في دنياه وآخرته ثم يسأل الله تعالى صلاح الأمور والأحوال فيقول:
- (**أصلح لي شأني كله**) أي جميع أمري في بيتي وأهلي وجيراني وأصحابي وعملي ودراستي وفي نفسي وقلبي وصحتي وفي كل ما يتعلق بي إجعل يارب الصلاح والعافية حظي ونصيبي وذلك كله فضل الله تعالى وليس باستحقاق العبد ولا بجاهه.
- وفي قوله: (**ولا تكلني**) إعتراف بالفقر التام إليه سبحانه والإستسلام الكامل لغناه. أي لا تتركني لضعفي وعجزي لحظة واحدة بل إصحبني بالعافية دائمًا وأعني بقوتك وقدرتك، فإن من توكل على الله كفاه، ومن استعان به أعانه، والعبد لا غنى به عن الله طرفة عين.

☼ تأمل أذكار النبي - صلى الله عليه وسلم - تَرَ عجبًا في هذا الباب، ففي سيد الاستغفار تتجلى أعظم معاني العبودية، وتبرز أسمى معاني الانكسار والتذلل **(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)** [أخرجه البخاري]

☼ وتأمل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وتذلله إذا قام من الليل يتهجد ويناجي ربه، قال: **(اللهم لك الحمد أنت قيَّم السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والارض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، ولك أمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمتُ وما أخرت، وما**

أسررتُ وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك) [البخاري]

- إنَّ حمد الله تعالى وشكره، والثناء عليه بما هو أهله، مع الاعتراف بالذنب والعجز، يعمّر القلب بالنور، ويوجب له الطمأنينة والسعادة.
- **وما أجمل كلام الإمام ابن القيم عندما قال:** " إن في القلب خلة وفاقة لايسدَّها شيء البته إلا ذكر الله عز وجل، فإذا صار الذكر شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبع له، فهذا هو الذكر الذي يسدّ الخلة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنيًا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان. فإذا كان غافلاً عن ذكر الله عز وجل، فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جدته، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته"

❖ العلامة الرابعة من علامات الافتقار: " الخوف"

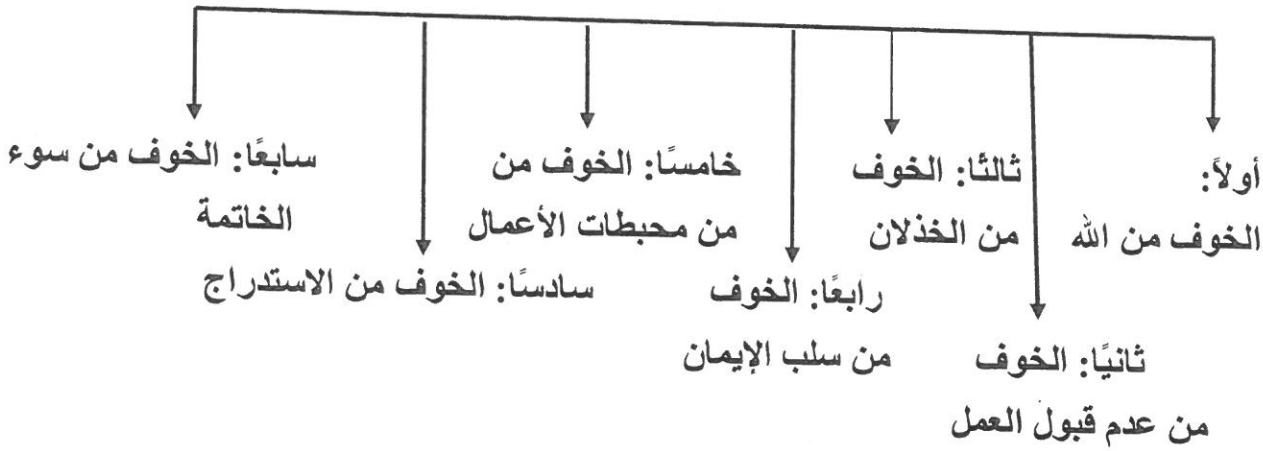

أولاً: "الخوف من الله"

الخوف من الله عز وجل في السر والعلن من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه سبحانه، فمن عرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأدرك عظمته وجبروته، وسلطانه الذي لا يُقهر، وعينه التي لا تنام، وقدَّره حق قدره؛ خاف منه حق الخوف، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال/2]

وقال عز وجل: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج/34- 35]

ومن كانت هذه حاله:

1. رأيته متيقظ القلب.
2. يرتجف خشية وإشفاقا.
3. دائم المناجاة لربه.
4. يستجير به ويستغيث استغاثة المفتقر الذليل، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر/9]

- **تفسير الآية:**

هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأنَّ هذا من الأمور التي تَقرَّرَ في العقول تبايُنُها، وعُلِمَ علماً يقيناً تفاوتُها؛ فليس المعرضُ عن طاعة ربِّه المتَّبِع لهواه كمن هو قانتٌ؛ أي: مطيعٌ لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهي أوقات الليل، فوصَفَه بكثرة العمل وأفضله، ثم وَصَفَه بالخوف والرجاء، وذكر أنَّ متعلَّقَ الخوف عذابُ الآخرة على ما سَلَفَ من الذُنوب، وأنَّ متعلَّقَ الرجاءِ رحمةُ الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن. {قل هل يَسْتَوي الذين يعلمون}: يعلمون ربَّهم ويعلمونَ دينَه الشرعيَّ ودينَه الجزائيَّ وما له في ذلك من الأسرار والحكم، {والذين لا يعلمونَ}: شيئاً من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار. {إنَّما يَتَذَكَّرُ}: إذا ذُكِّروا {أولو الألباب}؛ أي: أهل العقول الزكيَّة الذكيَّة؛ فهم الذين يُؤْثِرونَ الأعلى على الأدنى؛ فيؤثِرون العلمَ على الجهل، وطاعة الله على مخالفتِهِ؛ لأنَّ لهم عقولاً ترشِدُهم للنظر في العواقب؛ بخلاف مَنْ لا لبَّ له ولا عقلَ؛ فإنَّه يتَّخِذُ إلهه هواه.

- **وقال سبحانه وتعالى:** ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:16] وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ **[الفرقان/64]**

وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب؛ لأن القلب لا يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلى ما سواه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك/12]

- وفي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ....**) وذكر منهم: (**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**).
- **قال الحافظ ابن حجر:** " خاليًا: أي من الخلو؛ لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء، والمراد: خاليًا من الإلتفات إلى غير الله ولو كان في ملأ)
- ❖ والخوف من الله عز وجل عبادة قلبية تدفع العبد إلى الحرص والجدية والإقبال على الطاعة، **قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (مَنْ خاف أدلج، ومَنْ أدلج بلغ المنزل)** [أخرجه الترمذي]
- **ولهذا قال الحافظ عبيد الله بن جعفر:** " ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله" وتتجلى حقيقة هذه العبادة القلبية على الجوارح، ولهذا جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله: (**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله)** [أخرجه البخاري]
- فالمعصية تعرضت له بأكمل زينتها، وأبهى فتنتها، وهو بشر كالبشر، لكن ما حبسه عنها إلا الخوف من الله عز وجل.

ثانيًا: "الخوف من عدم قبول العمل"

فالخوف من عدم قبول الأعمال بعد الإجتهاد التام فيها ينبغي أن يلزم الواحد منا؛ لأنه لا يدري هل لاقى عمله القبول من الله أو رد عليه.

فمع شدة إقبال العبد على الطاعات، والتقرب إلى الله بأنواع القربات، إلا أنه مشفق على نفسه أشد الإشفاق، يخشى أن يُحْرَم من القبول، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون/60] أهم الذين يشربو ن الخمر ويسرقون؟! قال: (**لا يا ابنة الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**) أخرجه أحمد وصححه الألباني

فعلى الرغم من حرصهم على أداء هذه العبادات الجليلات فإنهم لا يركنون إلى جهدهم، ولا يُدْلُون بها على ربهم، بل يزدرون أعمالهم، ويُظهرون الافتقار التام لعفو الله ورحمته، وتمتلئ قلوبهم مهابة ووجلاً، يخشون أن تُردَ أعمالهم عليهم، والعياذ بالله، ويرفعون أكف الضراعة ملتجئين إلى الله يسألونه أن يتقبل منهم.

- **وتأمل قصة عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما** – عندما دخل على عائشة – رضي الله عنها – وهي تموت، فلما جلس قال: أبشري، فقالت: أيضًا ! ما بينك وبين أن تلقي محمدًا صلى الله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنتِ أحبَّ نساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى رسول الله، ولم يكن رسول الله يحب إلا طيبًا، وسقطت قلادتكِ ليلة الأبواء، فأصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى يصبح في المنزل، وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله - عز وجل- أن تيمموا صعيدًا طيبًا، فكان ذلك في سببك وما أنزل الله- عزوجل- لهذه الأمة من الرخصة، وأنزل الله براءتكِ من فوق سبع سموات، جاء به الروح الأمين، فأصبح ليس لله مسجد من مساجد الله يُذكر فيه لله، إلايتلى فيه آناء الليل وآناء النهار".

ماالظن بعائشة – رضي الله عنها – بعد هذا الثناء ...؟!

هل ركنت إلى عملها واطمأنت على حالها ....؟!

حاشاها – رضي الله عنها – بل قالت:" فقالت دعني منك يا ابن عباس والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيا منسيا" أخرجه أحمد

☜ **قال الحافظ ابن حجر** في تعليقه على قول عائشة –رضي الله عنها- " هو على عادة أهل الورع في شدة الخوف على أنفسهم" فتح الباري

☜ **قال أبو الدرداء** - رضي الله عنه - : (لئن استيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها إن الله يقول ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:27]

☜ **وكان عمر رضي الله عنه يقول لحذيفة:** أنشدك الله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من سمى من المنافقين؟ هذا وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها وأبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، فيقول حذيفة: لا . ولا أزكي بعدك أحداً.

☜ **وقال إبراهيم التيمي:** ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا

☜ **وقال يحي بن معاذ:** كيف يفرح المؤمن في دار الدنيا؟ إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها، وإن عمل حسنة خاف أن لا تقبل منه وهو إما مسيء أو محسن.

☜ **وقال ابن عون:** لا تثق بكثرة العمل فإنك لا تدري يقبل منك أو لا، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كفرت عنك أم لا؟ لأن عملك عنك مغيب لا تدري ما الله صانع به.

وتتأكد حقيقة الخوف من عدم قبول العمل عند أهل الإيمان بأربعة أمور:

الأول:	الثاني:	الثالث:	الرابع:
أن الله عزوجل غني عن طاعات العباد	أن قبول الأعمال إنما هو من فضل الله ورحمته	أن المنة لله جميعًا	أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة

الأول: أن الله عز وجل غني عن طاعات العباد:

فالله جل وعلا غني عن عباده، وليس في حاجة إلى عبادتهم وطاعاتهم - قال الله عز وجل ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: 12]

وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:7] وقال تعالى: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل:40]

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:8]

☜ **وفي الحديث القدسي قال تعالى:** (يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي: لو أنكم أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) أخرجه مسلم

☜ **قال قتادة وغيره من السلف:** " إنّ الله – سبحانه وتعالى– لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه، ولا نهاهم عنه بخلاً منه، بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم "

الثاني: أن قبول الأعمال إنما هو فضل الله

ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " **والله ! لا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم** " أخرجه البخاري

فإذا كان هذا هو حال سيد ولد آدم - عليه أفضل الصلاة والسلام - فكيف بغيره من الناس؟!

ومَنْ قرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم:" (**لن ينجي أحدًا منكم عملُه**) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: " (**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**) " أخرجه البخاري أيقن صلى الله عليه وسلم بضعفه وعجزه، وازداد تضرعًا وافتقارًا إلى ربه جل وعلا، ولم يتعاظم في نفسه، أو يُعجب بجهده وعمله.

☜ **قال ابن القيم:** " كلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبيَّن لك أنَّ ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين؛ خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله " مدارج السالكين.

وكلما شعر العبد بهذه الحقيقة بانت له عظمة الخالق جل وعلا، وعرف مقدار نفسه، وهكذا ربَّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه - رضي الله عنهم - فها هو ذا أجلهم وأعلاهم منزلة - أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - يقول للنبي صلى الله عليه: " (علّمني دعاءً أدعو به في صلاتي)" والنبي - صلى الله عليه وسلم - أعرف الناس بصاحبه ومع ذلك قال له: " (**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**) " البخاري ومسلم

إنها تربية ربانية تحدُّ من استعلاء العبد، وتجعله دائم الافتقار إلى ربه، دائم الانكسار بين يديه، وإذا كانت هذه هي وصية النبي - صلى الله عليه سلم- لأبي بكر- رضي الله عنه - وهو مَنْ؟ هو إمامة

وجلالة وجهادًا ونصرة لدينه وذبًا عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون حالنا ونحن المذنبون المفرطون؟! نسأل الله السلامة

☼ **قال أحد السلف:** كنت أعجب من حال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كيف يخشى النفاق على نفسه، وهو الفاروق الذي بشّره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة؟!

ثم عرفت أن العبد كلما ازداد عبودية وافتقارًا إلى ربه ازداد ازدراء للنفس وخوفًا عليها، وتعلق قلبه بربه - سبحانه وتعالى -

☜ **قال الحسن البصري رحمه الله:** " ما خافه - يعني: النفاق- إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق" [اخرجه البخاري]

☜ **وقال الجعد أبو عثمان:** " قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشون النفاق؟! قال: نعم ، إني أدركت بحمد الله منهم صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا " أخرجه: أبو نعيم في حلية طالب العلم

☜ **وقال ابن أبي مليكه:** " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، وما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل" أخرجه البخاري معلقا بصيغة الجزم

☜ **قال ابن حجر:**" والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكه من أجلهم: عائشة، وأختها أسماء، والعبادلة الأربعة، وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء من سمع منهم وقد أدرك بالسن جماعة من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك أن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخاف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم. فتح الباري

☜ **وقال ابن رجب الحنبلي:** " كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر، كما تقدم أن دسائس السوء الخفية توجب سوء الخاتمة". جامع العلوم والحكم

الثالث: أن المنة لله جميعًا:

فالمؤمن ينسب ما به من نعمة، وما عنده من طاعة إلى ربه ومولاه عز وجل، فله الفضل والمنّة، ولا يزعم أن ذلك من حوله وكده وجهده قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 125]

وقال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:17]

- **تفسير الآية:**

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ويعني بذلك قوماً أسلموا بدون قتال فجعلوا يمنون على الرسول - عليه الصلاة والسلام - يذكرون له الفضائل ويقولون: نحن آمنا بك من دون قتال، مع أن المصلحة لهم، رَد عَلَيهِمْ" قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ " فَإِنَّ نَفْعَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُود عَلَيْكُمْ وَلِلَّهِ المِنَّة عَلَيْكُمْ فِيهِ "، وهذه حالةٌ من أحوال من ادَّعى لنفسه الإيمان وليس به؛ فإنَّه إمَّا أن يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالمٌ بكلِّ شيء، وإمَّا أن يكون قصدُهم بهذا الكلام المنة على رسولِه، وأنَّهم قد بذلوا وتبرَّعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيويَّة، وهذا تجمُّلٌ بما لا يجمل، وفخرٌ بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ هذا إضراب لإبطال ما سبق، أي ليس لكم منة على الرسول - عليه الصلاة والسلام - بإسلامكم، بل المنة لله - عز وجل - عليكم أن هداكم للإيمان، فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمنَّته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنَّته عليهم بالإيمان أفضلُ من كلِّ شيء، ولا شك أن هذا أعظم منة أن يمن الله على العبد بالهداية إلى الإيمان، مع أن الله أضل كثيراً من الأمة عنه، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحداً من الجنة (51) البخاري ومسلم ، فمن وفق بأن واحداً في الجنة فإن هذه منة عظيمة، ولهذا كان الأنصار رضي الله عنهم حين جمعهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار يوم قسم غنائم حنين (**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّه بِي ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّه بِي ؟ وَكُنْتُمْ عَالَة فَأَغْنَاكُمْ اللَّه بِي ؟ " كُلَمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّه وَرَسُوله أَمَنّ**) (52) البخاري ومسلم، فالمنة لله على كل من هداه الله بنعمه، فالمنة لله - عز وجل - عليه وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي إن كنتم من ذوي الصدق القائلين بالصدق، فإن المنة لله عليكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾.

- وفي الحديث القدسي قال تعالى: (**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**) [أخرجه مسلم]

- **ومن عجائب آي الذكر الحكيم:** ما ورد في مطلع سورة المدثر، فعندما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنذارة بادئ الأمر، وُضّح له طبيعة الطريق، فقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: 6]

◄ **تفسير الآية:**

{ولا تَـمْنُنْ تَسْتَكثِرْ} ؛ أي: لا تمنُنْ على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، فتستكثر بتلك المنَّة، وترى لك الفضل عليهم، بل أحسِنْ إلى الناس مهما أمكنك، وانسَ عندهم إحسانَك، واطلُبْ أجرك من الله تعالى، واجعلْ مَن أحسنتَ إليه وغيره على حدٍّ سواء.

وقد قيل: إنَّ معنى هذا ألاَّ تعطي أحداً شيئاً وأنت تريدُ أن يكافِئَك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصًّا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم.

إنها وصية واضحة لا غموض فيها، تجرد العبد من استعلائه وإدلاله على ربه؛ تملأ القلب مهابة وإجلالاً لله عز وجل صاحب الفضل والمنَّة

ومن لطائف هذا الباب أنَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حينما طُعن وجعل يتألم، قال له عبدالله بن عباس مواسيًا: " يا أمير المؤمنين ولئن كان ذالك، لقد صحبتَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبتَ صحبتهم فأحسنتَ صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون"... وبعد هذا الثناء العظيم على أمير المؤمنين رضي الله عنه.

تأمَل جوابه عندما قال لابن عباس: " أمَا ما ذكرتَ من صحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضاه: فإنما ذاك مِن مَنٍّ الله تعالى عليّ، وأمّا ما ذكرتَ من صحبة أبي بكر ورضاه: فإنما ذاك مِن مَنٍّ الله عليَّ، وأمّا ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديتُ به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه" أخرجه البخاري

الرابع: أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة:

فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (" **إنَّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**") [أخرجه مسلم]

فالعبد مهما بلغت منزلته لا يأمن على نفسه الفتنة، ويخشى أن تجرفه رياح الأهواء والفتن، ولهذا كان من دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - (" **اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك** ")

أخرجه مسلم

فإمام المتقين يتضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء افتقارًا إلى الله تعالى، فكيف بنا ونحن الفقراء المحاويج.... ؟!

ومن كان لا يأمن على نفسه رأيته أشد وجلاً على نفسه، وأشد انكسارًا بين يديه مولاه العظيم سبحانه وتعالى .

☜ **قال جبير بن نفير:** " دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلمَّا جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله عز وجل من النفاق، فلما انصرف قلت له، غفر الله لك يا أبا الدرداء، وما أنت والنفاق؟! ما شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: اللهم غفرًا - ثلاثا - من يأمن البلاء من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليفتن في ساعة واحدة فيقلب عن دينه" صفة المنافق لجعفر الفرياني

لهذا فإن من أدرك هذه الحقائق الأربعة :

علم أنَّ إعجاب المرء بطاعته وإدلاله بها على ربه من أعظم الأدواء والآفات التي تُسقط العبد، وتجعله على شفا جرف من الضلال والانتكاس والعياذ بالله!

☜ **قال مطرف بن عبدالله الشخّير:** " لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا؛ أحبّ إليَّ من أن أبيت قائمًا فأصبح معجبًا " الزهد لعبدالله بن المبارك

☜ **وقال الإمام ابن القيم:** " إنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا؛ خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وأنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل. وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبّحين المدلين. ولعلَّ الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولاتشعر" مدارج السالكين

ثالثًا: " الخوف من الخذلان"

❖ **يقول تعالى:** ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: 46]

✓ لما لم يعدوا له عدة علم أنهم ما أردوا الخروج فثبطهم قدرًا وقضاءً ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين من النساء والمعذورين.

✓ فالمسلم في حاجة إلى **توفيق الله** في كل أموره وأحواله (وهو أن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه مريدًا له محبًا له مؤثرًا على غيره) **وألا يخذله** (ويخلي بينه وبين نفسه) وهو أن يترك الله عز وجل الواحد منا لنفسه ولا يعينه عليها، يتركه لجهلها وظلمها وعجزها وكسلها وحبها للراحة والشهوات، فما من عبد يوكل لنفسه إلا خذل.

✓ يقول صلى الله عليه وسلم في دعائه:

"إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا رحكمتك"

✓ وفي ليلة بدر كان من دعائه - صلى الله عليه وسلم - :" **اللهم لا تخذلنا**"

✓ وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة رضي الله عنها: " ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي إذا أصبحتِ وإذا أمسيتِ:

"يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"

✓ **ويقول ابن القيم رحمه الله:** من تفكر في **التوفيق والخذلان** وجد أنه محتاج إلى توفيق ربه في كل نفس وكل طرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى ولو تخلى عنه طرفة عين لثل عرش توحيده، ولسقط سماء إيمانه على الأرض.

✓ **حال الفقير:** فحينئذ يسأل الله توفيقه مسألة المضطر، ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقى بنفسه بين يديه طريحًا ببابه مستسلمًا له ناكس الرأس بين يديه خاضعًا ذليلاً مستكينًا لا يملك لنفسه ضرًا ولانفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فينبغي أن يلزمنا خوف دائم من الخذلان من العمل على استجلاب التوفيق

علنا ندخل في رحمته سبحانه وتعالى، فكم من المرات أحسن الواحد منا استعداده للقيام بعمل ما، ونسي في خضم اعتماده على نفسه وإمكاناته وحسن استعدادته نسي التوكل على الله، والعمل على استجلاب توفيقه واستمطار رحمته، فتكون النتيجة هي **الخذلان**

رابعًا: " الخوف من سلب الإيمان"

العبد لا ينبغي أن يكون آمنًا على ما معه من إيمان بل لا يزال خائفًا وجلاً أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الأيمان.

وأن لا يزال داعيًا بقوله: "**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**" وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت فليس على يقين من السلامة.

وهل يأمن أحد **مكر الله** قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف:99]

- **تفسير الآية:**

{أفأمنوا مَكْرَ الله}: أيْ بَأسه ونِقمَته وَقُدْرَته عَلَيْهِمْ وَأخْذه إيَّاهُمْ فِي حَال سَهْوهمْ وَغَفْلَتهمْ" حيث يستدرجُهم من حيث لا يعلمونَ، ويُملي لهم إنَّ كيده متين،" وَلِهَذَا قَالَ الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ الله : المُؤْمِن يَعْمَل بالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِق وَجِل خَائِف وَالفَاجِر يَعْمَل بالمَعَاصِي وَهُوَ آمِن .

{فلا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرون}: فإنَّ من أمِنَ من عذاب الله؛ فإنه لم يصدِّق بالجزاء على الأعمال ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أنَّ العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزالُ خائفاً وَجِلاً أن يُبتلى ببليَّةٍ تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: يا مقلب القلوب! ثبِّتْ قلبي على دينك، وأن يعمل ويسعى في كلِّ سبب يخلِّصه من الشرِّ عند وقوع الفتن؛ فإنَّ العبد ولو بلغت به الحال ما بلغتْ؛ فليس على يقين من السلامة.

- **ولو آمّنْ أحد مكر الله لأمنه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام تأمل دعاءه** ؛ ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: 35]

- **تفسير السعدي:** أي: اجعلني وإيَّاهم جانباً بعيداً عن عبادتها والإلمام بها.

ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة مَن افتتن وابتُلِيَ بعبادتها ﴿ ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناس﴾؛ أي: ضلوا بسببها،.

- **ولو آمن أحد مكر الله لأمّنه نبي الله يوسف عليه السلام** فقد كان يدعو ربه فيقول: ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف:101] أي ادم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، وألحقني بالصالحين من الأنبياء والأبرار والأصفياء والأخيار.
- **ولو آمن أحد مكر الله لأمّنه كذلك سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم** فما أكثر ما كان يقول:

"**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**" [صحيح]

- **وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لايموت، والجن والإنس يموتون)** [مسلم]

1. **وكان أبو هريرة رضي الله عنه** يقول في آخر عمره: (اللهم إني أعوذ بك أن أزني أو أعمل كبيرة في الإسلام) يقول بعض أصحابه: يا أبا هريرة ومثلك يقول هذا أو يخافه وقد بلغت من السن ما بلغت، وانقطعت عنك الشهوات، وقد شافهت النبي صلى الله عليه وسلم وبايعته وأخذت عنه؟ قال: (ويحك وما يؤمنني وإبليس حي؟!)
2. **ودخل جبير على أبي الدرداء** فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يتعوذ بالله من النفاق فلما انصرف قلت : غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفرًا ثلاثًا، من يأمن البلاء؟ من يأمن البلاء؟ والله إن الرجل ليفتن في ساعة فينقلب عن دينه.
3. **وكان الْحَسَنَ يَقُولُ : "** والله ما أصبح على وجه الأرض ولا أمسى على وجه الأرض مؤمنٌ، إلا وهو يتخوف النفاق على نفسه، وما أمِنَ النفاق إلا منافق".
4. **ولذلك كان من دعاء الراسخين في العلم:** ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:8] أي : لا تملها عن الحق إلى الباطل.

خامسًا: " الخوف من محبطات الأعمال"

لابد أن يلزم العبد هذا الخوف خشية من أن يحبط عمله وهو لا يشعر والأسباب التي تؤدي إلى إحباط العمل كثيره منها:

1) **الشـرك:**

- **فإن الشرك** جناية في حق الله؛ لأنه أقبح القبيح، وأظلم الظلم، وتنقص لرب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره.
- **والشرك** من أخطر الذنوب قال تعالى:

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه الله الشرك بقوله: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾

[إبراهيم: 35]

- **قال إبراهيم التيمي:** ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم.
- **فإن إبراهيم** يخاف الشرك على نفسه وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء فما بالنا نحن إذن فلا تأمن الشرك ولا تأمن من النفاق.
- **ولا شك إن إبراهيم** سأل ربه الثبات على التوحيد؛ لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقيًا على توحيده.

فصور الشرك كثيرة قد يقع بعضنا في واحدة منها فيحبط عمله يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ **[الأنعام:88]**

- هذا تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي على الفرض والتقدير لو أشركو فإن الشرك محبط للعمل موجب للخلود في النار فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا وحاشاهم لحبطت عنهم أعمالهم فغيرهم أولى.
- إنه أمر رهيب أن يسعى العبد ويسعى ويجمع حسنات كثيرة ثم يشرك بالله فيمحو به ما سبق من حسنات، كرجل صام طول يومه وقبل غروب الشمس بدقائق أدخل جوفه قطرات من الماء.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ **[الزمر: 65]**

1. **الرياء:**

قال العلماء في تعريف الريا: أن يقوم العبد بالعبادة التي يتقرب بها إلى الله لا يريد بها الله بل يريد غرضًا دنيويًا.

- **أسباب الرياء كثيرة:** ← حب المحمدة وخوف المذمة
  ← الطمع فيما في أيدي الناس

- **يقول القرافي في كتابه الفروق:**
واعلم أن الرياء شرك مع الله في طاعته وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان لتلك العبادة ودليل ذلك في الحديث الصحيح [**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**]

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ ﴾ [البقرة:264] لا تبطلو ا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال أنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه.

* وقد دخل عمر رضي الله عنه المسجد فرأى معاذ بن جبل رضي الله عنه يبكي عند قبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " **إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة** " [أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد]

* ولقد ضرب للقرآن مثلاً للمرائي: وحسرته عندما يجد أن ثمره تعبه وسهره وكده وإنفاقه للمال قد ذهبت هباءً منثورًا فأي حسرة تلك التي تصيب صاحبه ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان: 23]

- **تفسير الآية:**

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي: أعمالهم التي رَجَوْا أن تكونَ خيراً وتعبوا فيها، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ أي: باطلاً مضمحلًّا قد خسروه وحُرِموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقدِهِ الإيمان وصدورِهِ عن مكذِّب للّه ورسله؛ فالعمل الذي يقبلُهُ اللّه ما صَدَرَ من المؤمن المخلصِ المصدِّق للرسل المتَّبِع لهم فيه.

2. **الإعجاب بالعمل:**

❖ **العجب:** استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم.

❖ **والعجب:** محرم من كبائر الذنوب، بل عده جماعة من العلماء من الشرك المحبط للعمل.

- **سئل رياح القيسي أبا مهاجر فقال له:** ما الذي أفسد على العمال أعمالهم؟ فقال: " حمد النفس ونسيان المنعم".

☜ **صور العجب داخل النفس:**

العجب خاطر يهيج داخلك يدعوك لاستعظام عملك واستكثاره وتقول في نفس: [لقد صبرت، وقويت ، واستطعت] فرحًا نفسك بقوتها معظمًا لها مع نسيان نعمة الله عليك في القيام بذلك.

- **قيل لعائشة - رضي الله عنها - :** متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن.
- فذنب تذلك به لديه خير من طاعة تدل بها عليه، وإنك تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين.

4. **<u>المن بالعطايا:</u>**

- **المن:** أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والأنعام وأنه ولي النعمة ومسديها وليس ذلك في الحقيقة إلا الله؛ فإنه هو المنعم على عبده في الحقيقة.

فالإمتنان: استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ولا يصلح الذل والعبودية إلا لله، ولأن المَنَّ هو عدّ النعمة وذكرها للمنعم عليه وتعدادها المرة بعد المرة فمن مَنَّ على عباد الله فقد نازع الرب في ربوبيته.

- **المَنِّ بالقول:** يبطل الأعمال ومحبطها وهو من كبائر الذنوب.

المَنَّ: أن يَمُنُّ على من أحسن إليه بلسانه ويريه أنه أوجب عليه حقا وطوقه في عنقه ويقول له: أما أعطيتك كذا وكذا ويعدد أياديه عنده؛ فإنه قد تولى ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فليس له حقٌ آخر عند من أعطاه، فإذا مَنَّ عليهِ فقد ظلمهُ وبطلت معاوضته مع الله ومعاملتهِ لهُ وهذا دليل على أن المَنَّ يبطل الصدقة ولا ثواب فيها وهي من كبائر الذنوب.

← **قال سفيان:** يقول " أعطيتك فما شكرت "

وقد حذر الله على عباده المَنَّ في الصنيعة، واختص به صفة لنفسهِ؛ لأنه مِنَ العباد تكديروتعيير، وأما مِنَ الله سبحانه وتعالى هو إفضال وتذكير.

- **يقول تعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 264]

- **تفسير الآية لابن كثير:**

وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّ - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لَا يَدْخُل الْجَنَّة مُدْمِن خَمْر وَلَا عَاقّ لِوَالِدَيْهِ وَلَا مَنَّان، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى " يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتكُمْ بِالْمَنّ وَالْأَذَى " فَأَخْبَرَ أَنّ الصَّدَقَة تَبْطُل بِمَا يَتْبَعهَا مِنْ الْمَنّ وَالْأَذَى فَمَا بَقِيَ ثَوَاب الصَّدَقَة بِخَطِيئَةِ الْمَنّ وَالْأَذَى ثُمَّ قَالَ تَعَالَى " كَالَّذِي يُنْفِق مَالَهُ رِئَآءَ النَّاس " أَيْ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتكُمْ بِالْمَنّ وَالْأَذَى كَمَا تَبْطُل صَدَقَة مَنْ رَاءَى بِهَا النَّاس فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ يُرِيد وَجْه الله وَإِنَّمَا قَصْده مَدْح النَّاس لَهُ أَوْ شُهْرَته بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَة لِيُشْكَر بَيْن النَّاس أَوْ يُقَال إِنَّهُ كَرِيم وَنَحْو ذَلِكَ مِنْ الْمَقَاصِد الدُّنْيَوِيَّة مَعَ قَطْع نَظَره عَنْ مُعَامَلَة الله تَعَالَى اِبْتِغَاء مَرْضَاته وَجَزِيل ثَوَابه وَلِهَذَا قَالَ " وَلَا يُؤْمِن بِاَللَّهِ وَالْيَوْم الْآخِر " ثُمَّ ضَرَبَ تَعَالَى مَثَل ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ قَالَ الضَّحَّاك : وَالَّذِي يُتْبِع نَفَقَته مَنًّا أَوْ أَذًى فَقَالَ" فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ " وَهُوَ جَمْع صَفْوَانَة فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول الصَّفْوَان يُسْتَعْمَل مُفْرَدًا . أَيْضًا وَهُوَ الصَّفَا وَهُوَ الصَّخْر الْأَمْلَس " عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ" هُوَ الْمَطَر الشَّدِيد " فَتَرَكَهُ صَلْدًا " أَيْ فَتَرَكَ الْوَابِل ذَلِكَ الصَّفْوَان صَلْدًا أَيْ أَمْلَس يَابِسًا أَيْ لَا شَيْء عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَاب بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلّه أَيْ وَكَذَلِكَ أَعْمَال الْمُرَائِينَ تَذْهَب وَتَضْمَحِلّ عِنْد الله وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ أَعْمَال فِيمَا يَرَى النَّاس كَالتُّرَابِ وَلِهَذَا قَالَ " لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْء مِمَّا كَسَبُوا وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْم الْكَافِرِينَ" .

- وقد رودت الأحاديث بالنهي عن المنّ كما جاء في صحيح مسلم: (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم - المنان بما أعطى .....**)

- **يقول السعدي في تفسير هذه الآية:** ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة.

س لماذا تبطل الصدقة بالمنّ؟

المعطي لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله وعوض تلك الصدقة عند الله، فإنه تولى ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى فليس له حق آخر عند من أعطاه، فإذا من عليه فقد ظلمه وبطلت معاوضته مع الله ومعاملته معه، وهذا دليل على أن المنّ يبطل الصدقة ولا ثواب له فيها وهو من كبائر الذنوب.

سادسًا: " الخوف من الإستدراج"

- قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

[المؤمنون:55-56]

أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الأمر كما يزعمون لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم؛ بل إنما نفعل ذلك بهم استدراجًا وإنذارًا، إنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم ليزدادوا إثمًا وليتوفر عقابهم في الآخرة وليغتبطوا بما أوتوا حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة.

- قال قتادة: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم.

فالله تعالى ينذر عباده مرة تلو المرة بقوله: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:168] أي: اختبرناهم بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء لعلهم يرجعون، فإن لم يعودوا إليه فإنه سبحانه وتعالى قد يفتح عليهم أبواب الدنيا ليزداد غرورهم وغفلتهم استدراجًا لهم ليظنوا أنهم على خير فيستمروا على ما هم عليه حتى تحين منيتهم وهم على هذه الحال.

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام 44-45]

- **تفسير الآية لابن كثير:** " قالَ مُكِرَ بِالقَوْمِ وَرَبّ الكَعْبَة أعْطُوا حَاجَتهمْ ثُمّ أخِذُوا رَوَاهُ اِبْن أبِي حَاتِم وَقالَ قَتَادَة : بَغَتَ القَوْم أمْر اللّه وَمَا أخَذ اللّه قَوْمًا قطّ إلّا عِنْد سَكْرَتهمْ وَغِرّتهمْ وَنِعْمَتهمْ فَلا تَغْتَرُّوا بِاللّهِ فإنّهُ لا يَغْتَرّ بِاللّهِ إلّا القَوْم الفَاسِقُونَ رَوَاهُ اِبْن أبِي حَاتِم أيْضًا . وَقالَ مَالِك عَنْ الزُّهْرِيّ " فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبْوَاب كُلّ شَيْء " قالَ أرْجَاء الدُّنْيَا وَسِتْرهَا . وعن عُقْبَة بْن عَامِر عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ : إذَا رَأيْت اللّه يُعْطِي العَبْد مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيه مَا يُحِبّ فإنّمَا هُوَ اِسْتِدْرَاج ثُمّ تَلا رَسُول اللّه صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ " فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبْوَاب كُلّ شَيْء حَتّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أوتُوا أخَذْنَاهُمْ بَغْتَة فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ". عَنْ عُبَادَة بْن الصّامِت أنّ رَسُول اللّه صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَقُول" إذَا أرَادَ اللّه بِقَوْمٍ بَقَاء أوْ نَمَاء رَزَقَهُمْ القَصْد وَالعَفَاف وَإذَا أرَادَ اللّه بِقَوْمٍ اِقْتِطَاعًا فَتَحَ لَهُمْ أوْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ بَاب خِيَانَة " " حَتّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أوتُوا أخَذْنَاهُمْ بَغْتَة فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ " . كَمَا قالَ" فَقُطِعَ دَابِر القَوْم الّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْد لِلّهِ رَبّ العَالَمِينَ " وَرَوَاهُ أحْمَد وَغَيْره .

فأبواب الاستدراج كثيرة ولا يستطيع أحد أن يجزم أنه غير مستدرج.

- **يقول ابن القيم:**

فعلى العبد أن يفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج.

1. **فكم مستدرج** بالنعم وهو لا يشعر.
2. مفتنون بثناء الجهال عليه.
3. مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه.

وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغلهم من العلم فليعلم العبد أن :

- ما كان من نعم الله عليه بجمعه مع الله فهو نعمة حقيقية.
- وما فرق عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة والمحنة في صورة المنحة فليحذر إنما هو مستدرج.
- ويميز بذلك أيضًا بين المنة والحجة فكم تلتبس أحدهما على الأخرى.

* فإن العبد بين منة الله عليه وحجة عليه ولا ينفك عنهما.

- فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه وتعالى فهو مِنَّة وإلا فهو حجة.
- وكل مال اقترن به اشتغال بما يريده الرب فهو مِنَّة وإلا فهو حجة.
- وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وإنكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو مِنَّة وإلا فهو حجة.
- وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو مِنّة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنيتها إليه وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر ويميز بين موانع المنن والمحن والحجج والنعم

فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك

سابعًا: "الخوف من سوء الخاتمة"

فلا يدري أحد بماذا يختم له فالأعمال بالخواتيم وحسبنا في ذلك ما قاله صلى الله عليه وسلم: " **فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**) البخاري ومسلم.

- **يقول ابن رجب:** ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم.
- **بكى بعض الصحابة** عند موته فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول: " إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار" ولا أدري في أي القبضتين كنت؟
- **كان سفيان** يشتد قلقه من السوابق والخواتيم فكان يبكي ويقول: (أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًا) ويبكي ويقول:(أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت).
- **وقال التستري:** العبد يخاف أن يبتلى بالمعاصي والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.
- **ومن هنا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف** يخافون على أنفسهم النفاق ويشتد قلقهم وجزعهم منه فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر.
- **وقال بعضهم:** لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام؛ لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار.
- **وكان سهل يقول:** خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذا قال: وقلوبهم وجلة.

الطريق لتحقيق الافتقار

س ما هو الطريق لتحقيق الافتقار؟

لا طريق لتحقيق الافتقار إلا عن طريق: ← هو معرفة الله
← معرفة النفس

أولاً: معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته

فكلما كان العبد أعلم بالله وصفاته وأسمائه كان أعظم افتقارًا إليه تذللاً بين يديه، لأنه يدرك عظمة الخالق وجبروته قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:28]

- **قال الحافظ بن كثير في تفسيره:** " أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العلم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كان المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر) أهـ

وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:107- 109]

- **وقال الفضيل ابن عياض:**" أعلم الناس بالله أخوفهم منه، وقال: " رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله".
- **قال ابن القيم:**لا يستقر للعبد قدم في المعرفة بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بأسماء الله وصفاته ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالأسماء والصفات ومعرفتها هي أساس الإسلام وقاعدة الإيمان وشجرة الإحسان.
- **وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي:**" أصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته، وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع. ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع"

ومن تدبر الآيات البينات والأحاديث الشريفات التي جاء فيها ذكر صفاته العلى وأسمائه الحسنى ؛ انخلع قلبه إجلالاً لربه، وتعظيمًا لمقامه،وهيبته لسطوته وجبروته سبحانه وتعالى.

- **قال تعالى:** ﴿ اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:255]

- **وقال تعالى:** ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:59-61]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر:67]

- **يقول تبارك وتعالى:** " وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقّ قَدْرِهِ " أَيْ مَا قَدَرَ الْمُشْرِكُونَ اللّه حَقّ قَدْرِهِ حِين عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ وَهُوَ الْعَظِيم الَّذِي لَا أَعْظَم مِنْهُ الْقَادِر عَلَى كُلّ شَيْء الْمَالِك لِكُلّ شَيْء وَكُلّ شَيْء تَحْت قَهْرِهِ وَقُدْرَته قَالَ مُجَاهِد نَزَلَتْ فِي قُرَيْش وَقَالَ السُّدِّيّ مَا عَظَّمُوهُ حَقّ تَعْظِيمه وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب لَوْ قَدَرُوهُ حَقّ قَدْره مَا كَذَّبُوا . وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللّه عَنْهُمَا " وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقّ قَدْره هُمْ الْكُفَّار الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللّه عَلَيْهِمْ فَمَنْ آمَنَ أَنّ اللّه عَلَى كُلّ شَيّ قَدِير فَقَدْ قَدَرَ اللّه حَقّ قَدْرِهِ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِن بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدُر اللّه حَقّ قَدْره
- قَالَ الْبُخَارِيّ قَوْله تَعَالَى: " وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقّ قَدْره " عَنْ عَبْد اللّه بْن مَسْعُود رَضِيَ اللّه عَنْهُ قَالَ : جَاءَ حَبْر مِنْ الْأَحْبَار إِلَى رَسُول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِنَّا نَجِد أَنّ اللّه عَزّ وَجَلّ يَجْعَل السَّمَاوَات عَلَى أُصْبُع وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُع وَالشَّجَر عَلَى أُصْبُع وَالْمَاء وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُع وَسَائِر الْخَلْق عَلَى أُصْبُع فَيَقُول أَنَا الْمَلِك فَضَحِكَ رَسُول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذه تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْر ثُمَّ قَرَأَ رَسُول اللّه صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقّ قَدْره وَالْأَرْض جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْم الْقِيَامَة " الْآيَة وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ . [تفسير ابن كثير]

- **وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون)** [أخرجه: مسلم ، البخاري]

- **قال الإمام ابن القيم:** " القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء. وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه

من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا اراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء ..."

- **ثم قال "وجماع ذلك:**

أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همّه دون ما سواه، ويوجب له شهود صفات الربوبية:

1. **التوكل عليه.** 2. **والافتقار إليه.** 3. **والاستعانة به.** 4. **والذل والخضوع والانكسار له.**

- **وعرف ابن القيم الخشوع بأنه:** خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعمة الله، وجنايته هو، فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

فيجب على من كان في قلبه أدنى حياة أن يكون على معرفة ربه والإزدياد من التبصر فيه وسؤاله واستكشافه عنه هو أكبر المقاصد وأعظم مطالبة وأجل غايته.

- وليست القلوب الصحيحة والنفوس المطمئنة إلى شيء من الأشياء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر ولا فرحها بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق وكيف لا؟

- وقد بشر النبي صلى الله عليه وسلم من أحصى أسمائه ووعده بأعظم موعود فقال صلى الله عليه وسلم: (**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحده من أحصاها دخل الجنة**)

- **فيا خسرتاه** كيف ينقضي وينفذ العمر والقلب محجوب ما شم من رائحة معرفة الله وخرج من الدنيا كما دخل فيها وما ذاق أطيب ما فيها، ويغادر الدنيا وهو المحروم من أحسن ملاذها فإن اللذة التامة والفرح والسرور وطيب العيش إنما هو بمعرفته بربه.

التعرف على الله يثمر للعبد ثمرات جليلة في سلوكه وسيره

1. فإذا علم العبد بصفات الرب امتلأ قلبه بمعرفته وأثمرت له ثمرات جليلة في سلوكه وسيره إلى الله وتأدب معه ولزم أمره واتبع شرعه وتعلق قلبه به، وفاضت محبته على جوارحه، فلهج لسانه بذكره ويده بالعطاء له، وسارع في مرضاته غاية جهده ولا يكاد يمل القربه لله محب، فلم يبق في قلبه غير الله.

* ومن أحب الله لم يكن عنده شيء آثر من الله.
* والمحب لا يجد مع الله للدنيا لذة، فلم يثنه عن ذلك حب أهل أو مال أو ولد، لأن هذه الأشياء وإن عظمت محبتها في قلبه إلا أنه يدرك أنها بعض فضل الله عليه فكيف ينشغل بالنعم وينسى المنعم؟!

2. وإذا علم العبد بصفات الرب كان ذلك سببًا رئيسيًا في سلامته من الآفات وخاصة الحسد والكبر كما **قال ابن القيم:** (لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال لم يتكبر ولم يحسد أحدًا على ما آتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه يكره نعم الله على عبده وقد أحبها الله، ويحب زوالها، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره).
3. وإذا علم العبد بصفات الرب فإنه يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يشرعه من الأحكام من الحكم والمنافع فيثمر له الموقف الصحيح تجاه المكروهات والمصائب النازلة بالعبد فإن الإنسان ظلوم جهول والله سبحانه بكل شيء عليم وهو سبحانه عدل لا يظلم أحد كما قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216]

- **قال ابن القيم:** (ومن صحت له معرفته بالله والفقه في أسمائه وصفاته علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل فيه من ضروب المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد بما يكره أعظم منها فيما يحب) أهـ
- وهذا الفهم الصحيح عن الله يؤدي إلى طمأنينة الإيمان إلى القدر وإلى الطمأنينة إلى مواقع الأقدار التي لا قدرة له على دفعها فيسلم لها، ويرضى لها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا ييأس على ما فاته، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق.
- فهذه الطمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم هي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها.

4. ومن تعرف على الله فإن الروح قد باشرت الطمأنينة وذلك بعد أن نال القلب كماله، فإن الله عز وجل جعل لكل عضو من أعضائه كمالاً وإن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب

فقد كماله، فكمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال القلب ونعيمه وسروره ولذته في معرفة ربه وإراداته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إلى لقائه والأنس به، وإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين إذا فقدت النور، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام.

- فهذه الروح باشرت روح الطمأنينة، فاطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن صولة العجب إلى الإخبات ومن الكبر إلى التواضع.
- وإذا أيقنت الروح تلك الطمأنينة فلا إستقرار لها هنا إلا بلقاء ربها هناك.
- ومن هنا نعلم أن الجهل بمعرفة الرب هو السبب الرئيسي في عدم الرضا بأقدار الله وسوء الظن به وبأفعاله وأحكامه.
- **ولذلك قال ابن القيم:** (وأكثر الخلق يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسمائه وصفاته، وعرف موجب حكمه وحمده ..... ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعتبًا على القدر وملامة له ... وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟) أهـ

5. فإذا علم العبد بصفات الرب، فإنه يحدث في قلبه وروحه ارتباط عجيب بمن وثق به وتوكل عليه وحسن الظن به، فصار في وثاق محبته ومعاملته والإستناد إليه فهو في وثاقه بلقلبه وروحه وبدنه، فإذا سار القلب إلى الله انقطع إليه وتقيد بحبه وصار في وثاق العبودية، فلا يبق له مفزع في النوائب ولا ملجأ إليه غيره، وعلم يقينًا أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه سبحانه، فأصبح له سندًا وصمدًا وركنًا شديدًا يستند إليه ويفر إليه وينهل من عطائه في كل حين.
6. وإذا علم بصفات الرب أيقن بقلبه أن الله سبحانه وتعالى لن يقبل عملاً يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله وفضله ومنته وأنه من الله لا من نفسه، وأنه ليس له من نفسه إلا الشر، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلاً منه ساقه إليه من غير أن يستحقه بسبب ويستاهله بوسيلة فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلاً لكل خير، ويرى نفسه أهلاً لكل شر ثم أيقن بقلبه عيوب نفسه وآفات عمله وما تقدم من الإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، وانضم إلى قلبه نعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى، ورأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره ولم يبقى له حسنة، وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعم الله عليه ومطالعة عيوب نفسه، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلاً للخير فأوجب له ذلك أمرين عظيمين:
   1. استكثار ما مُنّ الله به عليه.
   2. استقلال ما منه من طاعة.

من أحصاها دخل الجنة

ومن هنا نعلم السر في أن الله جعل جائزة من أحصى أسماءه الحسنى دخول الجنة كما جاء في الحديث الصحيح (**إن لله تسعة وتسعين إسمًا مائةً إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**).

- **لأن من أحصى أسمائه:** بحفظها وعدها والتفقه في معانيها ودعاء الله بها والعمل بمقتضاها أثمرت هذه الأسماء في قلب هذا العبد وفي روحه ثمرات جليلة عظيمة كما رأينا حددت سيره إلى الله ورسمت له الطريق وضبطت سلوكه ومعاملته مع خالقه ومع نفسه ومع الناس وأصبح عبدًا ربانيًا وهذا الذي يسير إلى ربه أسرع من الرياح في مهابها، فلا يلتفت يمينًا ولا شمالاً حتى يأتيه اليقين.

ثانيًا: معرفة النـــفس

الطريق الثاني للوصول إلى الافتقار معرفة النفس، فمن عرف قدر نفسه وأنه مهما بلغ من الجاه والسلطان والمال فهو عاجز ضعيف لايملك لنفسه صرفًا ولا عدلاً، تصاغرت نفسه وذهب كبرياؤه، وذلت جوارحه، وعظم افتقاره لمولاه، والتجاؤه إليه وتضرعه بين يديه، وعلم شدة حاجته إليه في كل لحظة ونفس.

حقيقـــة النفـــس

- فلا بد للعبد أن يعرف حقيقة نفسه:

1. فالنفس خلقت من العدم كما قال تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الإنسان:1]
2. **النفس فقيرة إلى الله** من جميع الوجوه كما قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ [فاطر/15] فالفقر وصف لها ذاتي

- **فالنفس فقيرة إلى الله** لكي يعصمها الله من الكفر ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ [إبراهيم:35]
- **النفس فقيرة إلى الله** لكي يعصمها من الفجور ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [يوسف:33]

- **النفس فقيرة إلى الله** لكي يثبتها على الإيمان ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:74]

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى ربه في تثبيت قلبه فما بالك نحن؟!

- ولنتذكر معًا قول الله عز وجل خطابًا لخير البشر صلى الله عليه وسلم ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:159] أي برحمة الله لك مَنْ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخضعت لهم جناحك وترفقت لهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك.

3. **النفس جاهلة** كما قال تعالى ﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:78] فالله عز وجل المتفرد بجميع النعم حيث أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تقدرون على شيء ثم إنه جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، وهذه الأعضاء الثلاث مفتاح لكل علم، فلا يصل العبد من العلم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وذلك لأن يشكروا الله بإستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله.

4. **النفس عاجزة ضعيفة** كما قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:28] فالضعف من كل جهة من جهاته فهو ضعيف البنية، ضعيف الإرادة، ضعيف الهمة ضعيف أمام الشهوات والشبهات ، ضيعف أمام وساوس الشيطان ضعيف أمام سلطان النوم.

- فالأصل في النفس الضعف وكل مظهر من مظاهر مقاومته لهذه الأشياء فهي بفضل الله وإعانته وتوفيقه وتسديده ولو تركه الله لضعفه ما قاوم نظرة محرمة أو مالاً محرم.
- وهنا يتيقن العبد مدى حاجته إلى ربه وأنه لو تخلى عنه طرفة عين لهلك.

طبيعة النفس وصفاتها

1. النفس مجموعة من الشهوات والغرائز داخل الإنسان، فهي تسعى دائمًا للحصول على شهواتها وحظوظها في كل فعل يفعله العبد وتسمى هذه الشهوات بالشهوات الخفية:

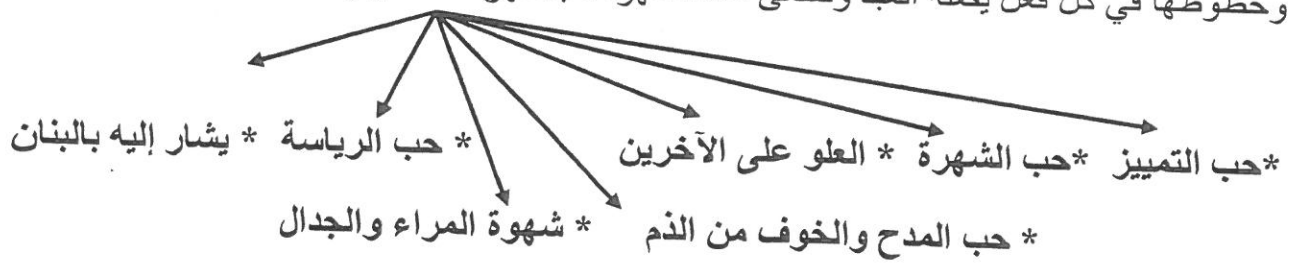

فالنفس تأمر صاحبها بما يحقق شهواتها، فإذا ما ترك لها أحد الزمام، وأحسن الظن بها فيصبح حتمًا أسيرًا لها، فإذا ما سيطرت الشهوات على النفس ولم تكن للإنسان إرادة رادعة ولا مقاومة حصينة فستهوي به إلى مكان سحيق على حساب مستقبله الدنيوي والأخروي.

2. النفس شحيحة تحب الأستئثار بكل خير كما قال تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء:128]
3. النفس أمارة بالسوء لا تأمر صاحبها إلا بما تراه يحقق مصلحتها.

ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من شرها بقوله: (**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**)

فالنفس لا تخرج من سوءها حتى تخرج الروح من الحسد، لأن الله وصفها بأنها أمارة.

من مظاهر النفس الأمارة

1. **كثرة الحديث عن نفسها:**

فتجد الإنسان يكثر الحديث عن نفسه ويزكيها وخاصة إذا أحس بتميز من جانب ما،

- فالأب يتحدث عن كفاءته في تربية أولاده
- والموظف يتباهي بإنضباطه في عمله
- والطالب يتحدث عن كفاءته في المذاكرة
- وربة البيت تتباهى ببيتها وترتيبه وتنسب العمل لنفسها ولا ترجعه إلى فضل ربها.

2. **طلب الأعمال والتقدم إليها:**

فالنفس ترى أنها أهلاً للقيام بالأعمال التي تراها أنها مميزة فيها.

- فالمدرس يقدم نفسه لتدريس المادة الصعبة ثقة بنفسه.
- وصاحب الدعوة يقدم نفسه لمناظرة فلان ظنًا منه أنه لا يقوم بهذا الأمر غيره.

3. **صعوبة التلقي من الغير أو قبول النصيحة:**

من مظاهر (الأنا) تقديس الذات، وعدم قدرة صاحبها على قبول النقد بسهولة في الشيء الذي يرى نفسه فيه، وكذلك عدم القدرة على الإستماع أو التلقي من الآخرين أوقبول النصح منهم.

4. **المن بالعطايا:**

من آثار رؤية النفس بعين الإستعظام ونسيان منة الله أن صاحبها لا يعطي عطية لأحد ولا يقدم خدمة إلا ويمن عليه بها وينتهز الفرصة المناسبة لتذكيره بخدماته وعطاياه، بل يعمل كذلك على استنطاق لسانه بمدحه وشكره، وقد يغضب منه إذا ما قصر في ذلك ويصل به الأمر أحيانًا إلى أن يشكوه لغيره على نكرانه للجميل.

5. **استصغار الأخرين:**

من مظاهر تقديس النفس استصغار الآخرين، ورؤية النفس دائمًا أعلى وأفضل منهم وبخاصة في الجزئية المتضخمه عنده سواء كانت في حسب أو نسب أو مال أو زكاة.

- فتراه يأنف من التعامل أو التودد مع من هم أقل منه في المستوى.
- فإن كان من أصحاب الألقاب صعب عليه مصاحبة مساعديه ومن هم أقل منه رتبة.
- وإن كان من أصحاب الأموال صعب عليه الجلوس مع الفقراء.

6. **التعالي على الناس:**

عندما تستولي عليه النفس فيعكس ذلك على تعاملاته مع الآخرين.

- فتراه يكثر من نصح غيره وينقده ولا يقبل النصيحة من أحد.
- يحب أن يخدمه الناس ويكره أن يخدم أحد.

- يضيق صدره إذا أثنى على أحد غيره.
- يمل من الحديث عن نفسه وإنجازاته

7. حب الإشتهار بين الناس:

فأكثر حديث نفسه أن يحلم بالشهرة وارتفاع شأنه بين الناس وقيامه بأعمال تلفت الأنظار.

ويلازمه الشعور بالأمان، يخاف على الناس أكثر مما يخاف على نفسه.

س **كيف يكون حال العبد إذا لم يعرف نفسه؟**

يجيب على هذا السؤال شيخ الإسلام فيقول: (لا ينتفع بنعمة العلم والإيمان إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوز إلى ماليس له، ولم يتعد طوره، ولم يقل هذا لي، وإنما يتيقن أنه بالله ومن الله، فهو المان علي ابتداءً وإدامة بلا سبب من العبد ولا أستحقاق.

س **ولكن لماذا لم ينتفع بنعمة العلم والإيمان إن لم يعرف نفسه؟**

لأنه سيقع في شباك النفس شاء أم أبى ووقع في تلك المفاسد.

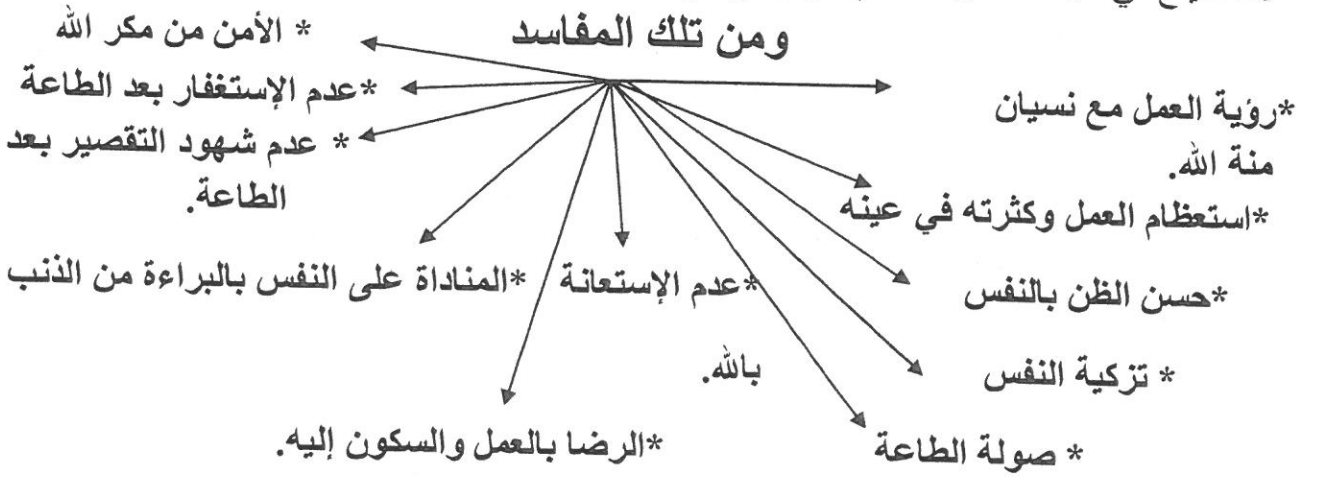

فمن عرف قدر نفسه، وأنّه مهما بلغ في الجاه والسلطان والمال فهو عاجز ضعيف لا يملك لنفسه صرفًا ولا عدلاً، تصاغرت نفسه، وذهب كبرياؤه، وذلت جوارحه، وعظم افتقاره لمولاه، والتجاؤه إليه، وتضرعه بين يديه – قال الله عز وجل - ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق:5-10]

- **وقد جمع الإمام ابن القيم بين هذين الأمرين بقوله:**" من كملت عظمة الحق تعالى؛ عظمت عنده مخالفته، لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه.
- ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتي إلى مولاها الحق في كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة ونَفَس؟

- وأيضًا فإذا عرف حقارتها مع عظم قدر من خالفه، عظمت الجناية عنده، فشمر في التخلص منها، وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تلحق به.

طريق الوصول إلى الافتقار

- فلا طريق إلى الوصول إلى الإفتقار التام إلا بمعرفة عظمة الخالق ومعرفة عيب النفس فبهذا الطريق يصل العبد إلى مولاه، ويصل إلى أعلى درجات العبودية.
- وإنقطاع العبد عن الله بفوات السير في هذا الطريق.

- **وهذا معنى قولهم [من عرف ربه عرف نفسه]:**

فمن عرف ربه بالعلم التام عرف نفسه بالجهل التام.
ومن عرف ربه بالعدل التام عرف نفسه بالظلم التام.
ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالعيب التام.
ومن عرف ربه بالعطاء والكمال عرف نفسه بالنقص التام.
ومن عرف ربه بالغنى عرف نفسه بالحاجة والفقر التام.

الافتقار باب الدخول على الله

فأقرب باب يدخل منه العبد على ربه هو الإفلاس [فلا يرى نفسه حالاً ولا مقامًا ولا وسيلة يتعلق بها، ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله من باب الإفتقارالصرف والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قبله حتى وصلت الكسرة إلى سويدائه، فانصدع وشملته الكسرة من كل جهته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله عليه ويتداركه برحمته].

مقت النفس في ذات الله

☜ من تعرف على ربه وعلى عيوب نفسه ودخل على الله من باب الإفلاس فإنه يمقت نفسه في ذات الله .

☜ فمقت النفس في ذات الله عباده يصلح بسببها القلب والنفس والجوارح.

◄ **وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء:** (لا يفقه الرجل كل الفقة حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا)

◄ **قال أبو حفص:** (من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها)

- فما أجمل أن نعاتب أنفسنا ونعمل على مقتها في ذات الله؟

◄ فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

◄ فالنعمة التي لا حظر لها، الخروج منها، والتخلص من رقها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتًا لها.

◄ **وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال:** (سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:32]

فقالت: (يا بني هؤلاء في الجنة) فأما السابق في الخيرات فمن مضى على عهد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ، شهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي وملثكم، فجعلت نفسها معنا)

◄ ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل.

◄ ولهذا كان يقول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إذا مدحه مادح: (اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرًا مما يظنون واغفرلي ما لا يعلمون)

◄ نعم إن هذا شأن المسلم المتيقظ، يقول الإمام الحسن رحمه الله (إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه في كل حالاته يستقصرها في كل ما يفعل فيندم ويلوم نفسه).

س كيف كان الصالحون ينظرون إلى أنفسهم؟

- **وهذا المرزوي تلميذ الإمام أحمد يقول:** ذكر أمام ابن حنبل أخلاق الورعين فقال: أسأل الله ألا يمقتنا، أين نحن من هؤلاء؟
- **وكان أبوبكر يقول:** لو يعلم الناس ما أنا فيه لأهالوا عليّ التراب.
- **فالنفس كما يقول الأجري:** أهل أن تمقت في ذات الله، لأنها تدعوني لسلوك سبيل الضلال، وتصرفني عما يرضى الله، ويوقعني فيما يبغضه.

- لقد كان من هم خير منا على عكس ما نحن فيه من إحسان الظن بأنفسنا فكانوا يمقتون أنفسهم في ذات الله تعالى.
- أما نحن فلا حاجة بنا إلى التفتيش عن نقص أو عيب، فهذا أمر مستبعد، أو هو لا يرد على خواطرنا أصلاً.

- **فكان شيخ الإسلام إذا أثنى عليه في وجهه أحد يقول:** (والله إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا)
- **وكان محمد بن واسع يقول:** لو كان للذنوب رائحة ما قدر أحد أن يجلس إليّ.
- **وقال يونس بن عبيد:** إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة.
- **وقال أيوب السختياني:** إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل.
- **وقال بكر بن عبدالله المزني:** لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم.
- **قال مطرف في دعائه في عرفه:** اللهم لاترد الناس لأجلي.
- وهكذا كان حال السلف الصالح يجتهدون في إتمام العبادة وإتقانها ومع ذلك يتهمون أنفسهم ويخافون من رده عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون/60]

- **قال الحسن :** مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون ربهم.
- فهؤلاء لا يزالون مستغفرين تائبين، وكلما كثرت طاعتهم كثرت ذنوبهم واستغفارهم وهذا هو حال الفقير حقا، لأن فقره حال بينه وبين رؤية عمله وأحواله.
- فإذا نظر العبد في حق الله الذي عليه لربه : علم يقينًا أنه غير مؤد له كما ينبغي وأنه لا يسعد إلا بالعفو والمغفرة وأنه إذا أحيل على عمل هلك.

◄ **فالسير إلى الله بمقت النفس في ذات الله يخلصه من :**

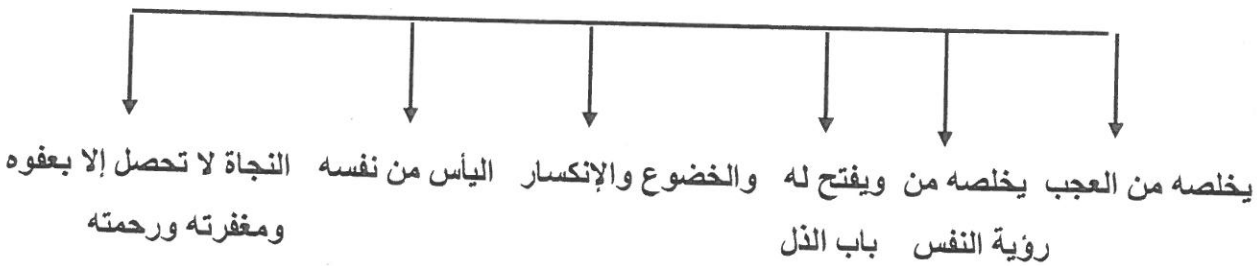

- **يخلصه من العجب**
- **يخلصه من رؤية النفس**
- **ويفتح له باب الذل**
- **والخضوع والإنكسار**
- **اليأس من نفسه**
- **النجاة لا تحصل إلا بعفوه ومغفرته ورحمته**

فهذا محل نظر أهل المعرفة ← بالله ← وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم وعلق رجاءهم

← وبنفوسهم ← كله بعفو الله ورحمته

❖ **فهذا ـريق الصديقين ويدنو العبد من ربه في لحظة أضعاف أضعاف ما يدنو من العمل**

((السير إلى الله يقتضي))

❖ السير إلى الله يقتضي عدة أمور حتى يسير العبد إلى ربه بلا عائق يمنعه عن السير وهذا هو حال الفقير حقًا الذي مقت نفسه في ذات الله ومن هذه الأمور:

- **السير إلى الله يقتضي:**

أن يكون عبدًا ذليلاً لا يرى لنفسه مقامًا ولا حالاً ولا طولاً ولا فعلاً، فلا يرى من نفسه إلا العجز والفقر والفاقة.

- **السير إلى الله يقتضي:**

أن لا يرى العبد لنفسه شيئًا، لا منه شيء، ولا به شيء ولا له شيء، وكل شيء ملك لله تعالى إن شاء أعطاه وإن شاء منعه وأخذ كل ذلك منه.

- **السير إلى الله يقتضي:**
- أن يرى العبد نفسه مملوكًا لله لا يرى نفسه مالكًا بوجه من الوجوه، ويرى أعماله مستحقه عليه لا بد منها وذلك بمقتضى أنه عبد مملوك يستعمله سيده فيما يشاء، ويرى أن كل نعمة هو بها من مال وصحة وقوة وأملاك هي كالوديعة في يده ليرى الله كيف يتصرف فيها عبده، ويعلم علم اليقين أن نفسه مملوكه ممتحنة في صورة مالك متصرف، فهذا هو الفقير الذي برئ من رؤية الملك الموجبة للطغيان كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ [العلق:6] أي سبب طغيانه ناشئًا عن رؤية غنى نفسه.

- **السير إلى الله يقتضي:**

أن يخرج من حكم صفة قدرته واختياره التي توجب له دعوى الملك والتصرف والإضافات، ويبقى بأحكام صفة القدرة الأزلية التي توجب له العجز والفقر والفاقة كما في دعاء الاستخارة (**اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب**)

- **السير إلى الله يقتضي:**

أن يشهد العبد شدة ضرورته إلى ربه في حركاته وسكناته والفاقة التامة إلى مقلب القلوب، ومن بيده أزمّة الاختيار، فهو مضطر إلى خالقه في كل طرفة عين وكل نفس، فإن حرك بطاعة أو نعمة شكرها وقال: (**أعوذ بك منك**) (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**)

- **السير إلى الله يقتضي:**
- أن يكون العبد عبدًا والرب ربًا، وأن يرى العبد ربه هو الذي يقويه ويكفله ويحفظه، وأنه بغير ربه

لاحول له ولا قوة.

- **السير إلى الله يقتضي:** أن لا تتكلم إلا بأدب وأن تقبل على الله وأنت متأدب وأنه ليس منك شيء البتة.

- **كما كان يقول شيخ الإسلام:**" إن العبد لا يرى إلا فضل مولاه، ويقطع لسانه عن الثناء ورؤية النفس، ورؤية العمل، ويقطع لسانه عن الآخرين من أن يطلب منهم مدحًا ولا دفعًا للذم أو تقديمًا أو تأخيراً أو احتراماً، وأن يروك الناس وأنت ما عليه من أعمال وأن يمدحونك ويرفعوا شأنك.
فالفقير إلى الله لا يتوقع لما يبذله للناس عوضًا منهم ولا مدحه ، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقًا، ولا يرى له على أحد فضلاً ".
- فالافتقار إلى الله يجرد العبد من كل حظوظها وأهوائها ويقبل بكليته إلى ربه متذللاً بين يديه، مستسلمًا لأمره ونهيه، متعلقًا بحبه وطاعته قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162-163]

❖ **السير إلى الله يقتضي:** أن ترى نفسك على حقيقتها، ترى نفسك ضعيفًا.

فأنت تحتاج دائمًا إلى مصدر قوة (وهو الله عز وجل)

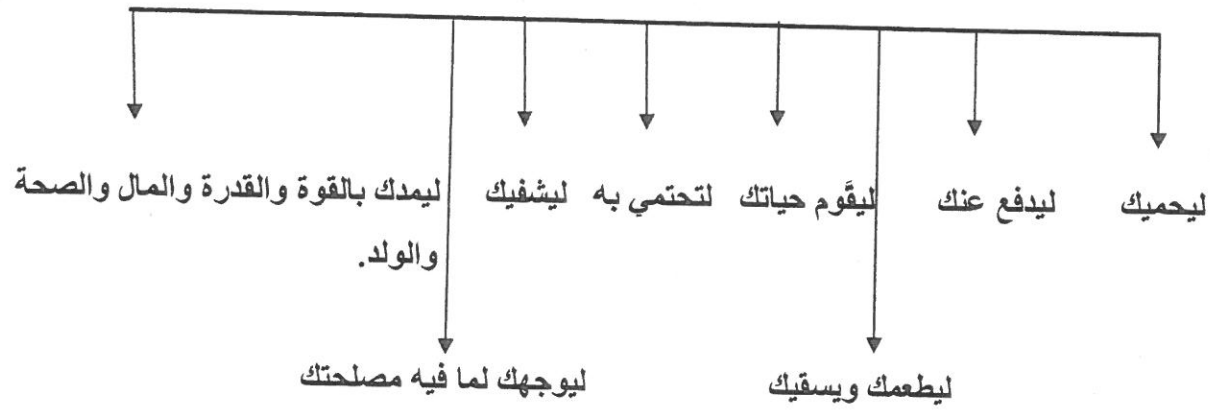

ليس لك من الأمر شيء ولا تملك شيء، لا قوة لك ولا قدرة لك، فأنت لاشيء ولن تكون شيء بدون ربك.

وبذلك يصل العبد إلى مولاه ويصل إلى ربه ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم:42]

وبهذا السير يصل العبد إلى حقيقة التوحيد (حقيقة العبودية)

التواضع فلا يرى لنفسه شيئًا إلا بحول الله وقوته فليس من نفسه إلا العدم وفقر الذات.

يعلم أن الله هو الغني بذاته

لا يرى لنفسه قدرًا ولا حالاً ولامقامًا وإنما دخل على الله من باب الإفلاس المحض.

تم بحمد الله وتوفيقه

المراجـــع:

بتصرف من كتاب حطم صنمك/ مجدي الهلالي

الافتقار إلى الله لب العبودية/ للصويان

الوابل الصيب من الكلم الطيب/ لابن القيم

مدارج السالكين/ لابن القيم

جامع العلوم والحكم/ للحكمي

تفسير الشيخ/ السعدي

تفسير الشيخ/ ابن كثير

صفوة التفاسير